أمة الإسلام إلى أين

مسيرًا ومصيرًا

سماحة الشيخ العلّامة
أحمد بن حمد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عُمان

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحفُوظَةٌ

الكلمة الطيبة
مسقط ـ سلطنة عُمان

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

[إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥]

تتشــرف الكلمة الطيبة بتقديم هذه الطبعة التفاعليــة الخاصــة بأجهــزة الحاســوب والأجهزة الذكية من هذه الرســالة القيّمة، فما على القارئ سوى الضغط على العنوان في الفهرس ليصل تلقائــيًا إلى الموضوع، والعودة للفهرس مجددًا بالضغط على كلمة: **المحتويات** الموجودة أسفل كل صفحة.

ونســأل الله تعالى أن يَأْجُــر كاتبها العلامة الجليل الشــيخ أحمد بن حمــد الخليلي، وأن ينفع بكلماته الأمة.

تنبيه:

يجب تحميل تطبيق Adobe Acrobat Reader للاستفادة من الميزة التفاعلية

المحتويات

- مقدمة ٦
- تعاليم الإسلام ضمان للوحدة ٢٢
- أمـة الإسـلام بين ماضيها المشرق وحاضرها الكاسف ٤١
- نظرة إلى أسباب الشقاق بين الأمة ٩٥
- خطة لإنقاذ الموقف ١٢١

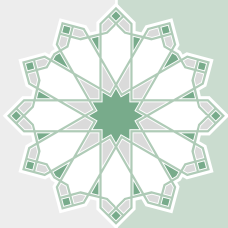

مقدّمة

الحمد لله الذي شرع لعباده الإسلام ديناً قيماً شامخاً بنيانه متينة أركانه مشرقا برهانه ظليلة أفياؤه واسعة أرجاؤه، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، خلق فسوى وقدر فهدى، وشرع لعباده ما فيه سلامة الدنيا وسعادة العقبى، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله الله رحمة للعالمين وإماما للمتقين وقدوة للمحسنين، فحقن به الدماء التي كانت تسفح، وصان به الحمى الذي كان يستباح، وألف به بين القلوب التي اشتدت وحشتها وتنافرها، وجمع به بين الأمم التي تعاظم عداؤها

وتدابرها، فانصهرت به الأمم في أمة واحدة، وكانت بدعوته لجميع الأمم إلى الخير قائدة، وفي جميع مجالات الإحسان رائدة، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان إلى أن يتوقف تعاقب الليل والنهار.

أما بعد..

فقد خلق الله الناس على منازع متباينة وطبائع مختلفة، وجعل الاختلاف بينهم من طبيعة حياتهم وأساس جبلتهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]، إلا أنه سبحانه لم يدعهم يتسكعون في أهوائهم ويهيمون في غيهم، وإنما أرسل إليهم رسله مبشرين ومنذرين

ليهدوهم من الضلالة ويرشدوهم من الغي ويبصروهم من العمى ويجمعوهم بعد الشتات، ويدعوهم إلى دين الله الحق الجامع بين خير الدنيا والآخرة، المنظم لجميع علاقاتهم مع أسرهم ومجتمعاتهم وأممهم وجنسهم، وقد اختتم الله سبحانه رسالاته جميعاً ببعثه مسك الختام للنبيين وبدر التمام للمرسلين، سيدنا رسول الله ﷺ؛ الذي جمعت رسالته ما تفرق في رسالات من قبله، واشتملت دعوته على مزيد عما اشتملت عليه دعوات الرسل الذين سبقوه، فتميزت بينها بالعمق والشمول كما تميزت بالدوام والاستمرار، إذ اختصت بكتاب صانه الله تعالى وصانها به من تلاعب أولي الأهواء، وتحريف ذوي الرغبات، وظل في أدوار التأريخ وأطواره شمساً ساطعة على الدنيا

لا تأفل، ومعيناً دافقاً بالخير لا ينقطع، ومنارة هادية إلى الرشد لا تختفي.

وقد كانت بعثته ﷺ على حين فترة من الرسل، وانقطاع من الوحي، وضلال من العقول، وفساد في الأخلاق، وانحطاط في القيم، وتفرق في الناس، وتحكم الجهل في حياتهم، إذ ظل الإنسان الذي أكرمه الله بالعقل وبوأه منصب الخلافة في الأرض والسيادة في الكون يتخبط في كل أمره، لأنه لم يكن يدري ما هو دوره الطبعي في هذا الوجود؟ وما هي وظيفته في الحياة؟ ولا من أين جاء؟ ولا إلى أين ينتهي؟ ولا كيف يتصرف في رحلته هذه بين المبدأ والمصير؟ وإنما كان شأنه شأن الأنعام في اتباعه الشهوات وتحكم الغرائز فيه، فغدا في الدنيا أداة خراب بدلاً من أن يكون أداة تعمير، ومصدر

رعب بدلاً من أن يكون مصدر أمان، فانقلبت معايير الحياة وتحطمت قيم الإنسان بالارتطام بصخرة غروره واستبداده العاتية، ولم يكن الوضع حيث تسود الإمبراطوريات الكبرى وتزخر الحضارات العظمى بأحسن حالا من الوضع في المجتمعات البدائية المتخلفة، وإنما كان الإمبراطور المتسلط نفسه مصدر رعب بالغ وظلم فاحش لجميع فئات رعاياه، كما وصف ذلك أمير الشعراء في قوله:

أَتَيتَ وَالناسُ فَوضى لا تَمُرُّ بِهِم
إِلّا عَلى صَنَمٍ قَد هامَ في صَنَمِ
وَالأَرضُ مَملوءَةٌ جَوراً مُسَخَّرَةٌ
لِكُلِّ طاغِيَةٍ في الخَلقِ مُحتَكِمِ
مُسَيطِرُ الفُرسِ يَبغي في رَعِيَّتِهِ
وَقَيصَرُ الرومِ مِن كِبرٍ أَصَمُّ عَمِ

يُعَذِّبــانِ عِبــادَ اللهِ فــي شُــبَهٍ
وَيَذبَحانِ كَما ضَحَّيــتَ بِالغَنَمِ
وَالخَلقُ يَفتِكُ أَقواهُم بِأَضعَفِهِم
كَاللَيثِ بِالبَهمِ أَو كَالحوتِ بِالبَلَمِ[1]

فصدع ﷺ بأمر الله وبلغ رسالته وحل بوحيه ألغاز الوجود، فعرف الناس من أين جاؤوا وإلى أين ينتهون وما الذي لهم أو عليهم في رحلتهم بين المبدأ والمصير، ودعا إلــى الوحدة دعوته إلى التوحيد، فأمر الناس جميعا أن يخلعوا كل ما يعبدونه من دون الله، وأن يجردوا عبادتهم لله وحده، وأن يُصفُّوا عقيدتهــم من جميع لوثات الشــرك وأرجاس الضــلال، وأن يأتلفــوا بألفة

(١) الشوقيات، ديوان أحمد شوقي، ١٦٧/١، شرح وضبط وقدم له علي العســيلي، مؤسســة النور للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

الإيمـــان وأن لا يســـتعلي بعضهـــم على بعض اعتداداً بمنصب أو زهواً بثروة أو افتخاراً بنسب أو تطاولاً بســـبب، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١١ ـ ١٣].

وظل صوته ﷺ بين المؤمنين صادعاً بالدعوة إلى اندماج بعضهـــم إلى بعـــض وإذابة جميع

الفوارق بينهم، وتوحد مشاعرهم وأحاسيسهم وتعاونهم جميعا على البر والتقوى، وسباقهم إلى الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما ظل يذكرهم بماضيهم الموحش المظلم عندما كانوا يسفك بعضهم دم بعض وينهب كل منهم ما يصل إليه من مال غيره، ولا يبالي أحدهم أن يعتدي على أعراض الآخرين، وكيف انتقلوا عن ذلك إلى الأخوة الإيمانية؛ التي جمعت شتاتهم ونظمت حياتهم وهذبت أخلاقهم وجردت طباعهم من كل ما كانت متلبسة به من أرجاس الحياة الجاهلية، وقد انتظم شتيت هذه المعاني قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٤].

ومع ذلك كان يحذرهم أيما تحذير من أي عودة إلى ما كانوا عليه من التفرق والاختلاف، ويبين لهم عاقبة ذلك من سوء المصير في الدار الآخرة، كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وكان القرآن الكريم بالمرصاد لأي دعوة يثيرها أعداؤهم لأجل تفريق كلمتهم وتشتيت شملهم ليتوصلوا إلى دوس حماهم وتفتيت بيضتهم، فكم فضح مؤامرات المتآمرين

ودعوات المضللين كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ۞ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠١]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩]، ذلك أن من أهل الكتاب من كانوا يوضعون خلال المسلمين يبغونهم الفتنة بإثارة ذكريات أيام الجاهلية وحروبها، وما خلفته من ثارات وتِـرَات لأجل اسـتفزازهم حتى يعودوا إلى سـيرتهم الأولـى، كما قـال القرطبي في الآيات السـابقة: «نزلت في يهودي أراد تجديد الفتنـة بيـن الأوس والخـزرج بعـد انقطاعها بالنبي ﷺ فجلس بينهم، وأنشـدهم شـعرا قاله

أحد الحيين في حربهم، فقال الحي الآخر: قد قال شاعرنا في يوم كذا وكذا فكأنهم دخلهم من ذلك شيء، فقالوا: تعالوا نرد الحرب جذعاء كما كانت فنادى، هؤلاء: يا آل أوس، ونادى هؤلاء: يا آل خزرج، فاجتمعوا وأخذوا السلاح واصطفوا للقتال فنزلت هذه الآية، فجاء النبي ﷺ حتى وقف بين الصفين فقرأها ورفع صوته، فلما سمعوا صوته أنصتوا له وجعلوا يستمعون فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا، وجعلوا يبكون. عن عكرمة وابن زيد وابن عباس والذي فعل ذلك شاس بن قيس اليهودي، دس على الأوس والخزرج من يذكرهم ما كان بينهم من الحروب، وأن النبي ﷺ أتاهم وذكرهم فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح

مـــن أيديهم وبكـــوا وعانق بعضهـــم بعضاً، ثم انصرفوا مع النبي ﷺ ســـامعين مطيعين، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يعنـــى الأوس والخزرج ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعنـــي شاســـا وأصحابـــه ﴿يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾، قال جابر بن عبد الله: ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله ﷺ فأومى إلينا بيده فكففنا، وأصلح الله تعالى ما بيننا فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ، فما رأيت يوماً أقبح ولا أوحش أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم»[1].

وكان ﷺ شـــديد الحساســـية من كل شـــعار ينادى به مـــن أجل تحزب فئة ضـــد أخرى من المؤمنين، ولو كان شـــعارا إيمانيـــا أكرم الله به المؤمنين، فكان ينكر على المهاجرين أن يتنادوا

(١) تفسير القرطبي، ١٥٥/٤.

بشعار الهجرة إن كان تناديهم للتحزب ضد الأنصار، وكذلك ينكر على الأنصار أن يتنادوا بشعار النصرة إن كان للتحزب ضد المهاجرين، فعن «جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: كنا في غزاة ـ قال سفيان: مرة في جيش ـ فكسع رجل من المهاجرين، رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية**» قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: «**دعوها فإنها منتنة**»»[1].

(١) أخرجه البخاري (١٥٤/٦ رقم: ٤٩٠٥)، ومسلم (١٩٩٨/٤ رقم: ٢٥٨٤)، والترمذي (٤١٧/٥ رقم: ٣٣١٥)، والحميدي (٣٢٧/٢ رقم: ١٢٧٥)، وأحمد (٣٣٥/٢٣ رقم: ١٥١٢٩)، والنسائي (١٣٦/٨ رقم: ٨٨١٢)، وابن حبان (٣٣٠/١٣ رقم: ٥٩٩٠)، وعبد الرزاق (٤٦٨/٩ رقم: ١٨٠٤١).

فترى أنه ﷺ سماها دعوى جاهلية مع تسميهم بما سماهم الله تعالى به ووصفها بالإنتان وحذرهم منها، وما ذلك إلا لأن كل فريق منهما أراد بندائه أن يحشد فريقه بما رفعه من شعار ونادى به من لقب ضد الفريق الآخر، وقد بين الله تعالى لهم أن الاستجابة لهذا الداعي تؤدي بهم إلى الكفر بعد الإيمان، وما ذلك إلا لأن هذه الحمية إنما هي نزعة جاهلية يأباها الإسلام لأهله، فالاستجابة لها إنما هي مسارعة إلى الجاهلية، وتَفَصٍّ من الإسلام كما قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**»[1].

(١) أخرجه الطيالسي (ص٩٢، رقم ٦٦٤)، وابن أبي شيبة (٤٥٥/٧، رقم ٣٧١٧٦)، وأحمد (٣٦٣/٤، رقم ١٩٢٣٧)، والبخاري (٥٦/١، رقم ١٢١)، ومسلم (٨١/١، رقم ٦٥)، والنسائي (١٢٧/٧، رقم ٤١٣١)، وابن ماجه (١٣٠٠/٢، رقم ٣٩٤٢)، والدارمي (٩٥/٢، رقم ١٩٢١)، وابن حبان (٢٦٨/١٣، رقم ٥٩٤٠).

ولا يعني أن التعجيب من كفرهم مع أن النبي ﷺ بين ظهرانيهم مسوغ لارتكاب ذلك بعد مغادرته لهم إلى الرفيق الأعلى فإن الفتنة هي الفتنة وآثارها كآثارها من قبل والتحذير منها شامل لجميع الأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والنبي ﷺ وإن غادر الأمة بشخصه فإنه باق فيهم بهديه وسنته، وقد حفظ الله لهم القرآن فمالهم من عذر في العزوف عن هديه، قال القرطبي: «ويدخل في هذه الآية[1] من لم ير النبي ﷺ لأن ما فيهم من سُنَّته يقوم مقام رؤيته قال الزجاج: يجوز أن يكون في هذا الخطاب لأصحاب محمد خاصة لأن رسول الله ﷺ كان فيهم وهم يشاهدونه ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة لأن آثاره

(١) يعني آية ١٠١ من سورة آل عمران.

وعلاماته والقرآن الذي أوتى فينا مكان النبي ﷺ فينا وإن لم نشاهده، وقال قتادة: في هذه الآية علمان بينان: كتاب الله ونبي الله فأما نبي الله فقد مضى وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهرهم رحمة منه ونعمة فيه حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته»[1].

(١) تفسير القرطبي، ١٥٦/٤.

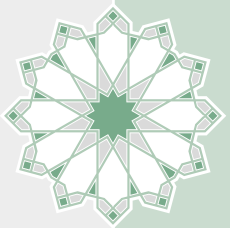

تعاليم الإسلام ضمان للوحدة

من حكمة الله البالغة أن أودع تعاليم الإسلام جميعاً أسباب الحفاظ على وحدة الأمة وارتباطها وانتزاع ما عسى أن يلابس النفوس من الأحقاد أو يعرض لها من السخائم سواء ما يتعلق بحقوق البشر كالعلاقات الأسرية والاجتماعية، أو ما يتعلق بحقوق الله الخالصة كالعبادات فإنها مع كونها صلات خاصة بين العباد وربهم لها أثر نفسي واجتماعي على كل من أداها بوجهها الشرعي فإنها تسوقه إلى الانسجام والوئام مع إخوانه المؤمنين، وتغرس في قلبه محبتهم والإخلاص لهم.

وهذا يتجلى بكل وضوح لكل من سبر الحكمة في مشروعية أي عبادة منها، وأمعن نظره في شكلها ومضمونها أو قل في جسمها وروحها، إذ ما من عبادة منها إلا وهي تصهر من نفس الإنسان ما يغشاه من غواشي الطبيعة التي تنزع به نحو الاستبداد والاستئثار حتى تخلص فطرته وتزكي طبعه؛ فيتحرر من آثار الطمع والشح والكبر وحب الاستعلاء والرغبة في التسلط على الغير، وبجانب ذلك تفجر من أعماق نفسه مشاعر الرفق والبر والرحمة والإحسان، فيغمر سيلها الدافق كل من حوله من أهل وولد وقرابة وجيران وإخوان وسائر الناس، وبهذا يصل إلى حقيقة الإيمان، كما بينه النبي ﷺ في

قوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[1].

وهي حالة تستدعي الانصهار في المجتمع، والاستعلاء على حب التفرد والاستئثار بالخير، ناهيكم أن العبادة نفسها علمنا الله سبحانه أن نخاطبه عندما نذعن بأدائها إليه بصيغة جماعية اندماجية، لا بصيغة فردية استقلالية، فقد علمنا أن نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ومعنى ذلك أن كل فرد في مثوله بين يدي الله تعالى وتقديمه ضريبة العبودية ـ من التذلل

(١) أخرجه من طريق أنس ابن المبارك (٢٣٦/١، رقم ٦٧٧)، والطيالسي (ص ٢٦٨، رقم ٢٠٠٤)، وأحمد (٢٧٢/٣، رقم ١٣٩٠١)، وعبد بن حميد (ص٣٥٤، رقم ١١٧٤)، والبخاري (١٤/١، رقم ١٣)، ومسلم (٦٧/١، رقم ٤٥)، والترمذي (٦٦٧/٤ رقم ٢٥١٥) وقال: صحيح. والنسائي (١١٥/٨، رقم ٥٠١٦)، وابن ماجه (٢٦/١، رقم ٦٦)، والدارمي (٣٩٧/٢، رقم ٢٧٤٠).

والطاعة والانكسار والخضوع والخشية والخشوع ـ إلى مقام الربوبية الرفيع، لا يستقل بحاجته وطلب قضائها عن إخوانه وسائر أبناء ملته فلا يستأثر دونهم بشيء، ولا ينسى ـ في هذا المقام العظيم الذي يكاد يغيب في شهوده فيه لمعبوده حتى عن نفسه ـ أن يشعر بالانخراط في سلك العابدين من أبناء ملته، واندماجه معهم في مشاعرهم وأحاسيسهم، واشتراكه معهم في طلب رحمة الله تعالى للجميع، وأن يغدق فضله على الكل، ويمن بالنجاح والتوفيق عليهم أجمعين.

أما ما يتعلق بحقوق الناس فإنه يتبدى بكل جلاء أن كل ما شرع في الحفاظ عليها يستوجب الرفق والرحمة بين الناس وحسن الصلة والوئام بين جميع أطرافهم، بحيث لا يستعلي قوي على ضعيف، ولا يستغل غني ذا حاجة، فترى

في أحكام البيوع والمعاملات تحريم الربا والغرر والغش والاحتيال وجميع وجوه الاستغلال، كما ترى وجوب مراعاة السبق والأولويات بحيث لا يجوز لأحد أن يقدم على أن يساوم على سوم أخيه كما لا يجوز له أن يقدم على أن يخطب على خطبته[1].

وكم تجد فيما شرع في حق الأزواج والوالدين والأولاد وحقوق الأرحام والجيران وحقوق المسلمين عامة ما يفيض بالرفق واللطف والرحمة ويغدودق بالبر والإحسان.

(١) ثبت في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ولا يسوم على سوم أخيه ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفئ صحفتها ولتنكح فإنما لها ما كتب الله لها**»، أخرجه مسلم (١٠٢٩/٢، رقم ١٤٠٨)، وقد روي من طرق أخرى بألفاظ متعددة.

أوليس في هذا كله ما يبصرنا بمزايا الإسلام العظيمة ومراعاته للألفة والوئام والمودة والحنان بين جميع أتباعه الموصولين بحبله المتين ويجعلنا نوقن أنه رحمة للعالمين؟.

نعم؛ هذا هو الإسلام الذي تعبدنا به والذي حواه كتاب الله تعالى المبين وسُنَّة نبيه المصطفى الأمين، ووعاه السلف الصالح من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان فاتبعوا نوره وسلكوا نهجه وارتبطوا بحبله، فكانوا أمة عظيمة بين الأمم طأطأت لها الأمم رؤوسها وأخضعت لها رقابها وامتلأت نفوسها إعجابا وتعظيما وتقديرا لها، لأنها حقا كانت أمة عظيمة في تصورها واعتقادها وفي أحاسيسها ومشاعرها وفي سلوكها وأخلاقها وفي سلمها وحربها وفي عطائها وأخذها وفي

قبولها ورفضها وفي قولها وعملها، وقد أثرت عظمتها في نفوس أعدائها حتى فاضت ألسنتهم ثناء عليها وتقديرا؛ لأن قلوبهم امتلأت تعظيما لهم وتوقيرا، فقد ذكر ابن الأثير أن هرقل سأل رجلا ممن اتبعه كان قد أسر مع المسلمين فقال: أخبرني عن هؤلاء القوم، فقال: أخبرك كأنك تنظر إليهم، هم فرسان بالنهار رهبان بالليل لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ولا يدخلون إلا بسلام يقضون على من حاربوه حتى يأتوا عليه، فقال: لئن كنت صدقتني ليملكن موضع قدمي هاتين[1].

وروى ابن عساكر بإسناده إلى «من سمع يحيى بن يحيى الغساني يحدث عن رجلين من قومه من غسان، قال: لما كان المسلمون بناحية

(١) البداية والنهاية، ٥٣/٧.

الأردن تحدثنا بيننا أن دمشق ستحاصر، فقال أحدنا لصاحبه هل لك أن تدخل المدينة فتتسوق من سوقها قبل حصارها؟ فبينا نحن نتسوق إذ أتانا رسول بطريقها اصطراخيه فذهب بنا إليه، فقال: أنتما من العرب؟ قلنا: نعم، قال: وعلى النصرانية، قلنا: نعم، قال: ليذهب أحدكما إلى هؤلاء فليتجسس لنا من خبرهم ورأيهم وليتثبت الآخر على متاع صاحبه، ففعل ذلك أحدنا فلبث لبثاً ثم جاءه، فقال: جئتك من عند رجال دقاق، يركبون خيولاً مشاق، أما الليل فرهبان، وأما النهار ففرسان، يريشون النبل ويبرونها، ويثقفون القنا، لو حدثت جليسك حديثا ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر، فالتفت إلى أصحابه، فقال: أتاكم منهم مالا طاقة لكم به»[1].

(١) تاريخ دمشق ٩٦/٢ ـ ٩٧، وينظر البداية والنهاية، ١٦/٧.

وقد رأيت كيف كانت خصالهم هذه مثار رعب أعدائهم بحيث تيقنوا أنهم لا طاقة لهم بهم، فكانت أقوى سلاح دحروا به أكثر الناس عدة وعددا وأكثرهم مراساً في القتال، وأخبرهم بفنون الحرب ومكائدها، ولا ريب أن ما كانوا يتحلون به من خصال البر ويتصفون به من قوة الإيمان ويتميزون به من مناقب الخير وينفردون به من الألفة والمودة والحنان فيما بينهم أقوى عامل لنجاحهم في مهماتهم، فما كانوا يقبلون على بلد إلا فتحوه ولا تتصدى لهم قوة إلا دحروها وقد واجهوا في زمن واحد إمبراطوريتين كانتا تتقاسمان معظم العالم المتحضر في ذلك الوقت وقد حققوا بحمد الله تعالى انتصاراً كاسحاً عليهما جميعاً، ولا غرو فإنهم صدقوا الله فصدقهم ونصروه فنصرهم،

وقد علم الله صدق طواياهم ونقاء سرايرهم، فأثنى عليهم في كتابه إذ قال فيهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨ ـ ٩].

وكانت سجاياهم تشرق على الدنيا أنباؤها كما تشرق شمس النهار عند طلوعها فيعم الفضاء شعاعها، فكم كان أعداؤهم أنفسهم هم الذين يعطرون الدنيا بنشرها، فعندما كانت جيوش المسلمين تكتسح ممالك فارس ضاق يزدجرد ذرعاً بالهزائم التي سحقت جيشه وشتت ملكه، فكتب إلى إمبراطور الصين طالبا منه نجدته، ولما وصل رسوله إليه قال له: «قد عرفت أن حقا على الملوك إنجاد الملوك على من غلبهم، فصف لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم فإني أراك تذكر منهم قلة وكثرة منكم ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذي

تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا لخير عندهم وشر فيكم.

قال: فقلت اسألني عما أحببت، فقال: أيوفون بالعهد؟ قلت: نعم، قال: وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم؟ قلت: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث، إما دينهم فإن أجبناهم أجرونا مجراهم، أو الجزية والمنعة أو المنابذة. قال: فكيف طاعتهم أمراءهم؟ قلت: أطوع قوم لمرشدهم، قال: فما يحلون وما يحرمون؟ فأخبرته، فقال: أيحرمون ما حلل لهم أو يحلون ما حرم عليهم؟ قلت: لا، قال: فإن هؤلاء القوم لا يهلكون أبداً، حتى يحلوا حرامهم ويحرموا حلالهم، ثم قال: أخبرني عن لباسهم، فأخبرته، وعن مطاياهم، فقلت: الخيل العراب ووصفتها، فقال: نعمت الحصون هذه ووصفت له الإبل بركها وانبعاثها

بحملها، فقال: هـذه صفة دواب طوال الأعناق، وكتب معه إلى يزدجرد أنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمـرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق عليَّ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسـولك لو يحاولون الجبـال لهدوها ولو خلـي لهـم سـربهم أزالوني مـا دامـوا على ما وصف، فسالمهم وأرض منهم بالسلامة ولا تهيجهم ما لم يهيجوك»[1].

(١) الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع سـليمان بن موسى الكلاعي الأندلسـي ت: ٦٣٤هـ، ٤/ ٣٧٨، عالـم الكتب ـ بيـروت ـ ١٤١٧هـ، الطبعـة: الأولى، تحقيـق: د. محمد كمال الدين عز الديـن علي، وانظر تاريخ الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت: ٣١٠، ٢/ ٥٤٩، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم الشـيباني ت: ٦٣٠هـ، ٢/ ٤٣٧، دار الكتب العلميـة ـ بيروت ـ ١٤١٥هـ، الطبعة: ط٢، تحقيق: عبدالله القاضـي، نهاية الأرب في فنون =

وإن عجبت فاعجب ما الذي أوجف قلوب الأباطرة في أرجاء الأرض من هيبة هذه القلة التي كانت مستضعفة مزدراة بين الأمم حتى أحسَّ إمبراطور الصين ـ مع بعد داره وكثرة جنده ـ أن الأرض تتزلزل به من تحت قدميه؟!.

نعم؛ إن ذلك هو الإيمان الذي ملأ وجدانهم وامتلك سرهم وجهرهم، وقد ترجموه إلى أعمال وأخلاق، فكانوا أمة مثالية بين الأمم ألبسهم الله تعالى الهيبة والوقار وملأ قلوب عباده حبا لهم تغلغل في أعماقها وإعجاباً

= الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري ت: ٧٣٣هـ، ١٧٦/١٩، دار الكتب العلمية ـ بيروت / لبنان ـ ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، البداية والنهاية، لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء ت: ٧٧٤، ١٢٩/٧، مكتبة المعارف ـ بيروت.

بسجاياهم الحميدة ملأ مشاعرهم وأحاسيسهم، ففاض على ألسنتهم حسن الثناء لهم، ولا غرو فإنهم شغلوا بحب الله عن كل من سواه وما سواه، وتزاحم في قلوبهم خوفه ورجاؤه، فأذهلهم خوفه عن خوف من دونه، فلم يبالوا بالجيوش الجرارة المزودة بأقوى العتاد، وامتلكهم رجاؤه فلم يلتفتوا إلى ما بأيديهم من الأسباب، وإنما أهمهم مسبب الأسباب، فكانوا في جميع أحوالهم يستمسكون بحبل التقوى ويتواصون بها.

فقد اشتهر أنه «كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ومَن معه من الأجناد: أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضلُ العدَّة على العدوّ، وأقوى المكيدة في الحرب وآمُرك ومن

معك أن تكونوا أشدّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوّكم، فإن ذنوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوّهم، وإنما يُنصَرُ المسلمون بمعصية عدوّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتنا كعدّتهم، فإذا استَوَينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنْصَرْ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوّتنا واعلموا أن عليكم في مسيركم حَفَظَةً من الله يعلمون ما تفعلون، فاستَحْيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ولا تقولوا إن عدوّنا شر منا فلن يُسَلَّط علينا [وإن أسأنا]: فرُبّ قوم سُلّط عليهم شر منهم، كما سُلّط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كُفّارُ المجوس ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾ [الإسراء: ٥] واسألوا الله العونَ على

أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوّكم أسأل الله ذلك لنا ولكم»[1].

هذه وصية الفاروق رضي الله تعالى عنه التي لم يوص بها جنده إلا بعد أن استوصى بها وحولها إلى صورة حية تتمثل في كل جزئية من حياته، فكانت وصية من القلب إلى القلب، فلم يلبث الجند أن تقبلها وترجمها ترجمة عملية وأخلاقية وكانت قوته وعتاده وسلاحه الفتاك الذي هزم أعداءه

(١) العقد الفريد، أحمد بن محمدبن عبد ربه الأندلسي ت: ٣٢٨هـ، ١١٩/١ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت /لبنان ـ ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، الطبعة: الثالثة، نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري ت: ٧٣٣هـ، ١٤٢/٦، دار الكتب العلمية ـ بيروت / لبنان ـ ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، ٢٢٥/١، المكتبة العلمية ـ بيروت ـ. بدائع السلك، ابن الأزرق(م) ت: ٨٩٦، ٦٢/٢، وزارة الإعلام ـ العراق، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. علي سامي النشار.

فاندحرت بين أيديهم الجيوش الجرارة وولت على أعقابها تاركة لهم معاقل عزها ومرابع فخارها، فتمكنت تلك القلة من إقامة دين الله وشرعه في تلك الأراضي الشاسعة التي ما كانوا يحلمون من قبل أنهم سيتبوأون في أرجائها مأوى يأوون إليه أو منتدحاً يتيممون نحوه، ولكن ليت شعري هل بقيت أمة الإسلام تسير على هذا الخطو ولا تعدل عن هذا النهج، أو أنها حادت عن هذا المسلك فهامت في بيداء منطمسة الصوى دارسة المعالم مظلمة الأرجاء موحشة الأنحاء، وظلت تتخبط في متاهاتها، غير قادرة على الخروج من مأزقها، ولا التفلت من إسارها، لأنها لم تستصبح بنور القرآن ولم تستمسك بحبله ولم تستعصم بعروته؛ فانفلتت يدها من معقد العز ومناط الشرف والكرامة، بل

أصبحت تبحث عن العــز في مكامن الذل وعن الكرامة في مواطن الهوان، وتطلب القوة بأسباب الضعف، ورضيت بالانقــلاب مما كانت عليه ـ من وحدة الصــف واجتماع الكلمــة والالتفاف حول راية الحق ـ إلى اتباع الســبل التي تفرقت بها فأصبحت شراذم يشتد بأسها بينها وتستخذي أمام عدوها، لا تبالي أن ترضي عدوها بســخط ربها وأن تشــتري لعاعة من دنياها بأعظم ثروة من دينها فخســرتهما معاً، وبقيــت تلهث وراء مواكب أعدائها تعيش على ما يتساقط من أيديهم من موائدهــم، كأنها لم تخلــق إلا لتكون تابعة ذليلة لا تملك استقلالاً في الفكر ولا حرية في الــرأي ولا نصيباً فــي السياســة ولا نظرة في الحياة، وإنما تتحرك بتأثير من غيرها كأنما هي آلات صماء يحركها الضغط على الأزرار؟.

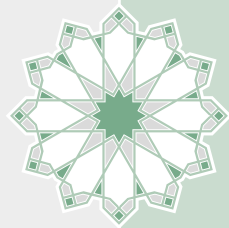

أمة الإسلام بين ماضيها المشرق وحاضرها الكاسف

لقد كانت أمة الإسلام ـ عندما مكن لها في الأرض وقبضت على أزمة قضايا الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية والأخلاقية والثقافية ـ قليلة عزيزة وأصبحت اليوم كثيرة مهينة لأنها غدت كما وصفها رسول الله ﷺ بقوله: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**»، قيل: يا رسول الله فمن قلة منا يومئذ؟! قال: «**لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت**»[1].

(١) أخرجه الطيالسي (ص١٣٣، رقم ٩٩٢)، وابن أبي شيبة (٤٦٣/٧، رقم ٣٧٢٤٧)، وأحمد (٢٧٨/٥، رقم ٢٢٤٥٠)، =

فمن حيث العدد تجاوزت الأمة اليوم المليار ونصف المليار، وهي مع ذلك يتفجر الخير من أرضها أنهارا ويتدفق الثراء في ديارها تدفق السيول الجارفة في الأودية العميقة الواسعة ولكنها لا تملك قرارا، ولا تستطيع حلاً ولا عقداً، وإنما هي مغلوبة على كل شيء، وما ذلك إلا لأنها أصبحت تعيش بغير هدف في الحياة بسبب تخليها عن رسالتها التي ترجمها ربعي بن عامر رضي الله عنه عندما قال أمام رستم القائد الفارسي: «الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[1].

= وأبو داود (١١١/٤، رقم ٤٢٩٧)، والروياني (٤٢٧/١، رقم ٦٥٤)، وأبو نعيم في الحلية (١٨٢/١). والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩٧/٧، رقم ١٠٣٧٢)، والديلمي (٥٢٧/٥، رقم ٨٩٧٧).

(١) تاريخ الطبري، ٤٠١/٢، الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، ١٩٢/٤، البداية والنهاية ٣٩/٧، جمهرة خطب العرب ٢٤٢/١.

وما قيمة الإنسان في الحياة إذا فقد الهدف الذي يعيش من أجله وجهل الغاية التي يسعى لتحقيقها؟!.

فالإنسان مدني بطبعه اجتماعي بفطرته تشده إلى بني جنسه عواطف ومشاعر وتربطه بهم مبادئ وغايات، وليست ثَمَّ في الحياة مبادئ وغايات أسمى من تلك المبادئ التي أنزل الله بها وحيه ونادت بها الرسل، وهي التي تصل المخلوق بخالقه وتقود الدنيا إلى الآخرة، وتوحد بين الأرض والسماء وبين الملك والملكوت، وتربط العمل بجزائه، وتحل ألغاز الحياة فتبصر الإنسان بمبدئه ومصيره، وترشده إلى واجبه فيما بين المبدأ والمصير، فإنها بالطبع هي التي تسوق الإنسان إلى الانتظام في سلك مجتمعه وأمته والتفاني من أجل مصلحتهما، لأن

حاله فيهما كحال العضو في الجسم كما قال النبي ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفعهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[1].

هذه الحالة إن وُجدت في الأُمة كانت كفيلة بأن ترص الصف وترأب الصدع وتأتي على كل ما عسى أن يكون فيها من خلل أو ينجم بينها من شقاق، فتكون الأمة بجميع أفرادها كالجدار الصلب الذي تلاحمت ذراته وأحكمت لبناته لا يجد الساعي إلى نقضه منفذاً للولوج إليه وتفتيت ذراته، ولا تزعزعه العواصف ولا الأعاصير، أما إن فقدت فإنها

(١) أخرجه أحمد (٤/٢٧٠، رقم ١٨٤٠٤)، ومسلم (٤/١٩٩٩، رقم ٢٥٨٦). وأخرجه أيضاً: البيهقي (٣/٣٥٣، رقم ٦٢٢٣)، والقضاعي (٢/٢٨٣، رقم ١٣٦٧).

تصبح أمة هزيلة ضعيفة يطمع فيها كل طامع، وتُطَوِّحُ بها كل عاصفة.

هذا؛ وإن من أخطر ما نكبت به الأُمة ـ بعد إضاعتها عهد الله تعالى ـ هذا التفرق والتحزب في الفكر والسياسة وتحكم النزاع فيما بينها في نزعاتها وما تبع ذلك من التعصب المقيت والفتنة العمياء، التي أصبحت تأكل الأخضر واليابس وتهلك الحرث والنسل وتأتي على الطارف والتليد، ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]، فإنها أصبحت رحى طحوناً تسحق كل ما تنطبق عليه صخرتاها.

وهي تساق إلى لهيب هذه الفتنة وضرامها من حيث تدري ولا تدري كأنما ترى منجاتها وسعادتها في إسلاس قيادها إلى من يسوقها إلى البلاء سوقاً ويدعها في المهالك دعاً، فلا تبالي

في الاقتتال بينها وعدوان بعضها على بعض ناسية عهد الله تعالى الذي أخذه عليها كما أخذه على بني إسرائيل من قبل وتوعدهم أشد الوعيد على إضاعته، وهو الذي تضمنه خطاب الله تعالى الذي وجهه إلى بني إسرائيل بقوله:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۞ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٤ ـ ٨٥].

وهو بلا ريب بكل ما اشتمل عليه من تأكيد ووعيد على إضاعته يتجه إلى هذه الأمة كما اتجه إلى بني إسرائيل، فكم من آية في كتاب الله تعالى تنص على ذلك كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ۝ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء: ٢٩ ـ ٣٠]، إذ المراد بقتلهم أنفسهم أن يقتل بعضهم بعضاً، وإنما عبر عنه بقوله: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ لأجل التأكيد على الوحدة الشعورية بين الأمة، بحيث يشعر كل من سولت له نفسه أن يقتل أخاه بأنه لا يقتل إلا نفسه، لأن خسارة ذلك تعود إلى الأمة جميعاً فتنقلب عليه.

وهذا يعني وجوب مراعاة حقوق جميع الأمة في المحافظة على أنفسها وعلى أموالها، وكذلك أعراضها، وكم من نص شرعي يدل على ذلك، فقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، والنبي ﷺ يلحُّ على تأكيد ذلك في مواقف شتى، ومن ذلك قوله: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة**»(١).

(١) أخرجه أحمد (٩١/٢، رقم ٥٦٤٦)، والبخاري (٨٦٢/٢، رقم ٢٣١٠)، ومسلم (١٩٩٦/٤، رقم ٢٥٨٠)، وأبو داود (٢٧٣/٤، رقم ٤٨٩٣)، والترمذي (٣٤/٤، رقم ١٤٢٦) وقال: حسن صحيح غريب. والنسائي في الكبرى (٣٠٩/٤، رقم ٧٢٩١)، وابن حبان (٢٩١/٢، رقم ٥٣٣). وأخرجه أيضاً: القضاعي (١٣٢/١، رقم ١٦٩)، والبيهقي (٢٠١/٦، رقم ١١٩٠٨).

وقال ﷺ: «**لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا** ـ وأشار إلى صدره ـ، **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**»[1].

وكان مما قاله في خطبته بحجة الوداع: «**يا أيها الناس.. أي يوم أحرم؟ أي يوم أحرم؟ أي يوم أحرم؟**» قالوا: يوم الحج الأكبر، قال: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام حرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، ألا ولا يجنى جان إلا على نفسه،**

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٧٧، رقم ٧٧١٣)، ومسلم (٤/١٩٨٦، رقم ٢٥٦٤). وأخرجه أيضاً: البيهقي (٦/٩٢، رقم ١١٢٧٦).

ألا ولا يجنى والد على ولده، ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبداً، ولكن ستكون له طاعة في بعض ما تستحقرون من أعمالكم، فيرضى بها، ألا إن المسلم أخو المسلم، فلا يحل لمسلم من أخيه شيء إلا ما أحل من نفسه»[1].

وقال ﷺ: «دب إليكم داء الأُمم قبلكم الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، حالقة الدين لا حالقة الشعر، والذي نفس محمد بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بشيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[2].

(١) أخرجه الترمذي (٥/٢٧٣، رقم ٣٠٨٧)، والنسائي في الكبرى (٢/٤٤٤، رقم ٤١٠٠)، وابن ماجه (٢/١٠١٥، رقم ٣٠٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/٢٧٣، رقم ٣٠٨٧)، والنسائي في الكبرى (٢/٤٤٤، رقم ٤١٠٠)، وابن ماجه (٢/١٠١٥، رقم ٣٠٥٥).

وقال رسول الله ﷺ: «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**»[1].

وقال: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً**»[2].

(١) أخرجه الربيع، (١/٢٧٠رقم: ٦٩٦)، ومالك (٢/٩٠٧، رقم ١٦١٥)، والطيالسي (ص٢٨٠، رقم ٢٠٩١)، وأحمد (٣/١٩٩، رقم ١٣٠٧٥)، والبخاري (٥/٢٢٥٣، رقم ٥٧١٨)، ومسلم (٤/١٩٨٣، رقم ٢٥٥٩)، وأبو داود (٤/٢٧٨، رقم ٤٩١٠)، والترمذي (٤/٣٢٩، رقم ١٩٣٥) وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الربيع، (١/٢٧٠رقم: ٦٩٨)، وأخرجه مالك (٢/٩٠٧، رقم ١٦١٦)، وأحمد (٢/٢٨٧، رقم ٧٨٤٥)، والبخاري (٥/١٩٧٦، رقم ٤٨٤٩)، ومسلم (٤/١٩٨٥، رقم ٢٥٦٣)، وأبو داود (٤/٢٨٠، رقم ٤٩١٧)، والترمذي (٤/٣٥٦، رقم ١٩٨٨) وقال: حسن صحيح. والطبراني في الأوسط (٨/٢٢٢، رقم ٨٤٦١)، والبيهقي (٧/١٨٠، رقم ١٣٨١٣) كلهم بزيادة «ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك».

وحذر ﷺ من أي عدوان على دم المسلم إلا أن يرتكب موجباً لذلك، كما في قوله: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار**، قيل: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: **إنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»[1]، وهذا إذا كان كل واحد منهما يسعى إلى سفك دم الآخر، أما إن كان أحدهما باغياً والآخر مدافعاً عن النفس، فإن من دافع عن نفسه سالم، كما دل عليه قوله ﷺ: «**من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل**

(١) أخرجه أحمد (٤٣/٥ رقم ٢٠٤٥٦) والبخاري (٢٠/١ رقم ٣١)، ومسلم (٢٢١٤/٤ رقم ٢٨٨٨) وأبو داود (١٠٣/٤، رقم ٤٢٦٨)، والنسائي (١٢٥/٧، رقم ٤١٢٢).

دون أهله فهو شـــهيد»[(١)]، وبيَّـــن ﷺ أن كلمة «لا إلٰه إلا الله» عاصمة لدم قائلها إلا بموجب شـــرعي، فعن ابـــن عمر رضي الله عنهما عـــن النبي ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمـــداً رســـول الله، ويقيمـــوا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منـــي دماءهـــم وأموالهم إلا بحق الإســـلام، وحسابهم على الله»[(٢)]، وعن أنس رضي الله عنه بلفظ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه

(١) وأخرجه عبد الـــرزاق (١١٤/١٠، رقـــم ١٨٥٦٥)، وأحمد (١٩٠/١، رقم ١٦٥٢)، وعبد بـــن حميد (ص ٦٦، رقـــم ١٠٦)، وأبو داود (٢٤٦/٤، رقـــم ٤٧٧٢)، والترمـــذي (٣٠/٤، رقـــم ١٤٢١) وقال: حســـن صحيح. والنســـائي (١١٦/٧، رقـــم ٤٠٩٥)، وأبو يعلى (٢٤٨/٢، رقم ٩٤٩)، والبيهقـــي (٢٦٦/٣، رقم ٥٨٥٨)، والضياء (٢٩٢/٣، رقم ١٠٩٢) وقال: إسناده حسن.

(٢) أخرجـــه البخاري (١٧/١، رقم ٢٥)، ومســـلم (٥٣/١، رقم ٢٢)، وابن حبان (٤٠١/١، رقم ١٧٥).

إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن يستقبلوا قبلتنا ويأكلوا ذبيحتنا ويصلوا صلاتنا فإذا فعلوا ذلك فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين»[1]، ومن طريقه وطريق أبي بكر الصديق وأوس بن أوس الثقفي وابن عباس وجابر بن عبد الله وأبي بكرة وأبي هريرة والنعمان بن بشير وسهل بن سعد الساعدي ﷺ بلفظ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله**

(١) أخرجه أحمد (٣/٢٢٤، رقم ١٣٣٧٢)، والبخاري (١/١٥٣، رقم ٣٨٥)، وأبو داود (٣/٤٤، رقم ٢٦٤١)، والترمذي (٥/٤، رقم ٢٦٠٨) وقال: حسن صحيح غريب. والنسائي (٧/٧٦، رقم ٣٩٦٧)، وابن حبان (١٣/٢١٥، رقم ٥٨٩٥)، والدارقطني (١/٢٣٢)، والبيهقي (٢/٣، رقم ٢٠٣١). وأخرجه أيضاً: الضياء (٥/٢٧٧، رقم ١٩١٣).

فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»[1].

(١) أخرجه من حديث أنس: أخرجه تمام (٢٢٥/١، رقم ٥٣٩). وحديث أوس بن أوس: أخرجه الطيالسي (ص١٥١، رقم ١١١٠)، والنسائي (٨٠/٧، رقم ٣٩٨٢)، وابن ماجه (١٢٩٥/٢، رقم ٣٩٢٩)، وأبو يعلى (٢٧٢/١٢، رقم ٦٨٦٢)، والطبراني (٢١٧/١، رقم ٥٩٢)، وأبو نعيم في الحلية (٣٤٨/١). وأحمد (٨/٤، رقم ١٦٢٠٥)، والدارمي (٢٨٧/٢، رقم ٢٤٤٦).
ومن حديث أبي بكر: أخرجه النسائي (٧٧/٧، رقم ٣٩٧٠)، والبزار (٩٨/١، رقم ٣٨)، والدارقطني في الأفراد كما في أطراف ابن طاهر (٦٣/١، رقم ١٢). قال الهيثمي (٢٥/١): رواه البزار، وقال: وهذا الحديث لا أعلمه يروى عن أنس عن أبي بكر إلا من هذا الوجه وأحسب أن عمران أخطأ في إسناده.
ومن حديث عمرو بن أوس عن أبيه: أخرجه أحمد (٨/٤، رقم ١٦٢٠٨)، والنسائي (٨١/٧، رقم ٣٩٨٣)، وابن ماجه (١٢٩٥/٢، رقم ٣٩٢٩)، والطحاوي (٢١٣/٣)، وابن قانع (٢٩/١). والدارمي (٢٨٧/٢، رقم ٢٤٤٦).
ومن حديث جرير: أخرجه الطبراني (٣٠٧/٢، رقم ٢٢٧٦).
ومن حديث النعمان بن بشير: أخرجه النسائي (٧٩/٧، رقم ٣٩٧٩)، والبزار (١٩٢/٨، رقم ٣٢٢٧). =

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عند الربيع بلفظ: «أُمرت

= ومن حديث سهل بن سعد: أخرجه الطبراني (١٣٢/٦، رقم ٥٧٤٦).
ومن حديث ابن عباس: أخرجه الطبراني (٢٠٠/١١، رقم ١١٤٨٧).
ومن حديث جابر: أخرجه أحمد (٣٣٢/٣، رقم ١٤٦٠٠)، ومسلم (٥٢/١، رقم ٢١)، والترمذي (٤٣٩/٥، رقم ٣٣٤١) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٧٩/٧، رقم ٣٩٧٧)، وابن ماجه (١٢٩٥/٢، رقم ٣٩٢٨).
ومن حديث عمر: أخرجه أحمد (٣٥/١ رقم ٢٣٩)، والبخاري (٥٠٧/٢ رقم ١٣٣٥)، ومسلم (٥١/١، رقم ٢٠)، والترمذي (٣/٥، رقم ٢٦٠٧) وقال: حسن. والنسائي (٦/٦، رقم ٣٠٩٣).
ومن حديث أبي مالك الأشجعي عن أبيه: أخرجه الطبراني (٣١٨/٨ رقم ٨١٩١).
ومن حديث أبي بكرة: أخرجه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد (٢٥/١). وفي الأوسط (٦٦/٤، رقم ٣٦٢٥).
ومن حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (٥٠٢/٢، رقم ١٠٥٢٥)، والبخاري (٥٠٧/٢، رقم ١٣٣٥)، ومسلم (٥٢/١، رقم ٢١)، وأبو داود (٤٤/٣، رقم ٢٦٤٠)، والترمذي (٣/٥، رقم ٢٦٠٦) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٧٧/٧، رقم ٣٩٧١)، وابن ماجه (١٢٩٥/٢، رقم ٣٩٢٧).
حديث سمرة: أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٩٩/٦، رقم ٦٤٦٥).

أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلٰه إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»[1].

وجميع هذه الروايات متضافرة على أن كلمة «لا إلٰه إلا الله» عاصمة للدم إلا بموجب شرعي، وهو قتل النفس المحرمة بغير حق أو الزنا بعد الإحصان أو الارتداد عن الإسلام.

وعليه؛ فإن إقدام المسلم على سفك دم المسلم بغير موجب شرعي بغي وعدوان، وقد أمر الله تعالى باجتماع كلمة المسلمين جميعاً على مقاتلة الباغي إن أصر على ذلك، وذلك في قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ

(١) أخرجه الربيع بن حبيب (١/١٨٨ رقم: ٤٦٤).

بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ [الحجرات: ٩ ـ ١٠]، ويستفاد من ذلك أنه لا يصار إلى العنف مع إمكان العلاج بالرفق، فإن وقع الاقتتال بين طائفتين وجب السعي من غيرهم إلى إطفاء نائرتهم بالصلح وجمع الكلمة، فإن أصرت إحداهما على المضي قدماً في بغيها وأبت الصلح وجب على الجميع أن يتظاهروا على قتالها حتى تذعن للصلح وتعود إلى حظيرة الألفة والوفاق.

وليس ذلك إلا لأن الفتنة كالنار المسعرة؛ إن شب لهيبها أتى على كل شيء وأهلك الحرث والنسل وترك البلاد بلاقع، فلذلك وجب التعاون على نزع فتيلها وإطفاء سعيرها قبل أن يستفحل أمرها فيتعذر أو يتعسر إطفاؤها، ولربما

يمكن اليوم مـــا يتعذر غداً فإن المشـــكلة كلما تقادمت ازدادت تعقداً واســـتعصت على الحل والعـــلاج، لهـــذا كان المســـلمون مأمورين أن يبادروا الفتن بسد أبوابها واستئصال أسبابها قبل أن يتفاقم أمرها، فإنها بقدر اتســـاع دائرتها يشق عليهم احتواؤها.

والســـخائم عندما تتراكم في الصدور يكون استلالها أشـــق على من يرومه، والأحقاد عندما تتغلغل في النفوس تصبح جـــزءًا من طبيعتها، فلا يوجد ســـبيل إلـــى تصفيتها منهـــا، فقد دل القرآن على ذلك، فإن الله سبحانه بين أن تآلف طرفـــي الأنصار واجتماع كلمـــة المؤمنين حول الرسول ﷺ كان أمراً إلٰهياً وقدراً ربانياً ما للناس إليه من ســـبيل، ولذلك امتن الله ســـبحانه على نبيه ﷺ بذلك فـــي قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ

وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ [الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣]،

فإن الأحقاد إن توارثتها الأجيال وسرت من الآباء والأجداد إلى أعقابهم كانت أبعد مدى في النفوس، وأقوى تأثيراً على العقول، وإنما الله وحده هو الذي يخلص النفوس من آثارها ويحرر العقول من إسارها كما كان ذلك في الرعيل الأول من هذه الأمة الذين سادهم الوفاق والألفة بعد الشقاق والنفرة، فضربوا أروع الأمثال في نصرة الحق وتحرير الإنسانية من ربقة الظلم والاستبداد.

وإذا كان ذلك السلف العظيم استطاع أن يتخطى السدود والحواجز ويجتاز العقاب الكأداء الصعاب حتى وصل إلى هذه الغاية العظيمة، فأين الخلف اليوم من حمل هذا الهم

والنوء بهذه الهمم حتى تتحقق هذه الغاية النبيلة، ويصل إلى هذا الهدف العظيم؟.

ليت شعري متى تتجرد أُمة الإسلام اليوم من أهوائها وتقف وقفة المحاسبة لنفسها على ما فرطت من حمل أمانة الله والقيام بحق دينه والاستعلاء على أسباب النزاع والشقاق؛ حتى تتبوأ ما تبوأه سلفها العظيم من مكان القيادة الحكيمة والريادة الأمينة بين الأمم، لتنعم الأرض بدورة تأريخية عظيمة تكون امتداداً لتلك الدورة التي قادها رسول الله ﷺ، وحمل تبعتها من بعده ذلك السلف العظيم من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فنعمت الإنسانية جميعا بالطمأنينة والاستقرار، وفازت بالعدل والإنصاف، وعرفت قيمة حياتها، واهتدت إلى سر وجودها؟.

إن ذلك ـ بلا ريب ـ منوط بأسبابه ومعقود على إتيانه من طريقه، فكل من سار على الدرب وصل، ولا يصل إلى غاية في الغرب من سلك إليها نحو الشرق، وكذا العكس، فالعز والسؤدد إنما هما من نصيب أُمة تأتلف ولا تختلف، وتتحد ولا تفترق، وتتناصر ولا تتخاذل، وتتسالم ولا تتحارب، وتتواد ولا تتباغض، وقبل كل ذلك فإن على أي أُمة أن تدرك رسالتها في الحياة ومسؤوليتها بين الأُمم، وقد بيّن الله تعالى رسالة هذه الأمة في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وجميع الأُمة مسؤولة عن ذلك، فقد حملها الله تعالى هذه المسؤولية بقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وهل يمكن أن تقوم الأُمة بهذه المسؤولية بين الأُمم مع إهمالها لنفسها وتعاميها عن عيوبها؟ فإن من لا يصلح نفسه لا يمكنه إصلاح غيره، ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وأي عيب أفضح للأُمة وأي داء أفتك بها من هذا التناحر والمسارعة إلى الفتنة والعداوة المستعرة في القلوب والشحناء والسخائم التي تغص بها الصدور، وفقدان موازين القسط وإضاعة معايير العدل؟؟.

لهذا كله كان لزاماً أن تتعاون الأمة جميعاً على علاج هذا الداء المستعصي الذي يسئد إسآدا في جسمها حتى يغدو جثة خاوية بغير روح قطعت منه الأوصال ومزعت منه الأشلاء، وعليها أن تجند لذلك جميع علمائها وحكمائها

وأولي الحصافة في الرأي والإخلاص في العمل من جميع أبنائها، فكم يعتصر القلوب ألما ويفجر العيون دمعاً ويبخع النفوس حزناً ما يشاهد بين هذه الأمة من فتن مضطرمة لا تبقي منها ولا تذر، تسعر بأموالها وأبنائها، كلما كادت تنحسر نارها أو يخبو أوارها امتدت إليها أيدي أعدائها الماكرة؛ لتزيدها تأجيجاً، حتى تأتي على البقية الباقية والناس غارقون في غفلة لاهون في سمود، فقدوا الإحساس حتى لم يعودوا يشعرون بالنار تسري في أبدانهم وتلتهم أطرافهم.

إني لأعجب عندما أقلب صفحات ديوان الشاعر الكبير والعالم البصير والداعية المخلص أبي مسلم الرواحي العُماني، الذي رحل عن هذا العالم إلى العالم الروحاني قبل ما يقرب من قرن من الزمن، فأجده ببصيرة المؤمن النيرة

ونظره النفَّاذ وحكمته البالغة يصف ما نحن فيه في هذا العصر كأنه يغدو ويروح بيننا، فتمتلكه الحسرة والأسى كما امتلكتنا ويصوغ مشاعره المؤلمة في كلماته الشعرية، التي تصور واقعنا وتصفه داء ودواء كقوله:

فتحت عيني فرأيت غافلاً
يحمله السيل وليته درى
ونائماً والنار في جثمانه
كأنه جزل الغضى وما وعى
وراضياً بذلة مفتخراً
بأن يعيش خازياً ومزدرى
ومؤمناً مستضعفاً يغمزه
ظالمه من الرجا إلى الرجا
وعاقلاً في رأيه متهماً
وأرشد الآراء للحر الدوا

وحاسداً لنعمة تخاله

أسعر ما كان إذا قلت خبا

وبائعاً لوطن فيه انتشى

بلقمة يلذها وهي الودى

فهل لنا استقامة وعزة

وحالنا مشؤومة كما نرى

وأغلب الناس الوفاء عندهم

مستهجن وعهدهم على شفا

يجرون في الأهواء لا تكبحهم

شكيمة عن دحل ولا هوى

وأدعياء الفضل إن دعوتهم

لغمرة الجلى تراموا للعرا

همهم في شهوات طبعهم

هم السوام في ارتياد المرتعى

ســـريهم من جمع المـــال ولو
أفلس مـــن مـــروءة ومن حجى
إذا دعـــا المجد تفـــادى ناقصا
وإن دعـــاه بـــذخ قـــال أنـــا
لا يشـــرف اليـــوم بعقـــل مقتر
والســـيد الأقعس من نال الغنى
فخذ مـــن الغمـــر الدنـــي رأيه
إن مـــلأ الكيس ودعـــه إن ضقا
تخاضعـــت لـــه الرقـــاب عنوة
وان جســـت صفحته وإن ظمى
عصائب الإســـلام تلكـــم حالنا
وليس يخفى في الظلام ابن جلا
ما تنظرون فـــي التماس طبعكم
قد نكأ الجـــرح وأدنف الضنى

ليس لها إلا التفاف قوة
بقوة ومقتدٍ بمقتدى
ليس لها إلا نفوس طفئت
أضغانها واشتعلت فيها التقى
يلمها الإيمان قلباً واحداً
وجهته الله وحشوه الهدى
إذا رمت فقوسها واحدة
وما رمت وإنما الله رمى
دب إليكم داء من قبلكم
من حسد يسفعكم ومن قِلَى
فخلصوا الأنفس من أدوائها
فقل من مهما أصابته نجا
ولو تآلفتم على إيمانكم
وكانت الأوجه وجها ينتحى

ومحصـــت أنـــواره قلوبكـــم
فصفيـــت مـــن فتنة ومن شـــذا
ضاق على الخصم الفضاء دونكم
وعـــزه الإركاس مـــن حيث نزا
عســـى الذي قـــدر مـــا يهولكم
يزيـــل باللطف الخفـــي ما عنا
ويمطر الـــروح علـــى ربوعكم
فينضر الروض وإن كان ذوى[1]

تلك هي مشـــاعر المؤمن المخلص الذي يعيش من أجل دينه وأُمته ويتجاهل شـــخصه وذاته؛ لأنـــه يرى أن عزته مرهونـــة بعزة أُمته التي ينتمي إليها، وســـيادته في ســـيادة دينه

(١) ديـــوان العلّامـــة أبـــي مســـلم، ص٣٥١ ـ ٣٥٢، حققـــه ودققه عبدالرحمٰن الخزندار، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

الذي يديـــن به. ونجـــده في قصيـــدة أخرى يعاتب أبناء ملته على ما استشـــرى بينهم من فتنة وشـــقاق وســـفك بعضهم لـــدم بعض، فيقول:

ما ذا الشقاق الذي يفري جنوبكم
والمؤمنون بـــذات الدين إخوان
أطلقتم السيف في أفراد ملتكم
وقيدتـــه عـــن الأعـــداء أجفان
هب أن أسيافكم غرثى بها قرم
ففي لحوم العـــدا يعتاش غرثان
هانت عليكم تراث الكفر واشتعلت
فيكم على بعضكم للبعض أضغان
وألفة الدين قربى لم يكن معها
أعلى وأدنـــى وأحزاب وأديان[1]

(١) المرجع السابق ص٣١٤.

وكان كثير التحسر على العصبية العمياء التي مزقت الأُمة فكانوا أحزاباً متصارعة وخصوماً متطاحنين، وفي ذلك يقول:

وليت بني الإسلام قرت صفاتهم
فما زعزعتها للغرور الزعازع
وليتهم ساسوا بنور «محمد»
ممالكهم إذ باغتتها القواقع
وليتهم لم ينحروا بسلاحهم
نحورهم إذ جاش فيها التقاطع
لقد مكن الأعداء منا انخداعنا
وقد لاح آل في المهامه لامع
وسورة بعض فوق بعض وحملة
لزيد على عمرو وما ثم رادع
وتمزيق هذا الدين كل لمذهب
له شيع فيما ادعاه تشايع

وما الدين إلا واحد والذي نرى
ضـــلالات أتباع الهـــوى تتقارع
وما تـــرك المختار ألـــف ديانة
ولا جاء فـــي القرآن هذا التنازع
فيا ليت أهل الديـــن لم يتفرقوا
وليت نظام الديـــن للكل جامع
لو التزموا من عزة الدين شرطها
لما اتضعت منها الرعان الفوارع
وما ذبح الإســـلام إلا ســـيوفنا
وقد جعلت في نفســـها تتقارع
ولو سلت الســـيفين يمنى أخوة
لدكت جبال المعتدين المصارع
وما صدعة الإسلام من سيف خصمه
بأعظـــم مما بيـــن أهليـــه واقع

فكم سـيف باغ حز أوداج دينه
بأفظع مما سيف ذي الشرك باخع
هراشاً على الدنيا وطيشاً على الهوى
وذلك سـم في الحقيقـة ناقع
وما حرش الأضغان في قلب مسلم
على مسـلم إلا من النعي وازع
ولو نصـع القلبان لـم يتباغضا
ولا ضام متبـوع ولا ضيم تابع
وما هـذه الدنيا لها قـدر قيمة
يضاع لـه ذخـر مـن الله نافع
وما نال منها طائـلاً غير إثمها
وأكدارها المسـتأثرون الأمانع
ولو بعدت في النفس منزعة التقى
لما نزعت نحو الشقاق المنازع[1]

(١) المرجع السابق، ص٣٢٨ ـ ٣٢٩.

وتجد هذه المشـــاعر تتجدد في نفس خلفه العظيم شـــاعرنا الخليلي، الذي أدرك طرفاً من أحوال هـــذا العصر فبكى واســـتبكى وأرســـل كلماتـــه لعلها توقظ ضمير الأُمـــة النائم وتبعث عزيمتها الميتة وحسبنا من ذلك قوله:

يا ساســـة الدين عـــلام وهنكم
وأنتـــم فـــي عـــدة وعـــدِّ؟
تختلفـــون الـــرأي فيمـــا بينكم
والحـــال إخفاق ونقـــض عهد
وخَلفكـــم من يســـتغل خُلفكم
في وثبة السمع وســـمع الخلد
يخالكم كالشـــاء في مســـرحها
فـــإن دعاهـــا رئمـــت لولـــد
هلم فـــي صـــدق العـــزوم إنها
ســـلاح كـــل أمـــة وفـــرد

....

....

نرتــع فــي غيبوبــة مــن أمل

ونرتضــي مــن العلــى بالوهد

نحــس بــالآلام فــي أنفســنا

لكنهــا منــي علــيَّ وحــدي

ونغمد السيف عن الخصم ولا

نقــره عــن دمنــا فــي غمــد

أهكــذا قالــت لنــا عقولنــا؟

أم أنها قد أخطــأت عن قصد؟

أم أنهــا ليســت لهــا بصيرة؟

أم أنهــا بصيــرة لا تجــدي؟

يــا حالة قــد أفقدتنــي عصبي

رميــت فيمــن كنتــه بالفقــد

مــولاي عبــد تــاه فــي مرامه
عن نهجــه وأنت مولــى العبد
فخــذ بضبعــه وأُمــة هــوت
تحت الخلافــات وبثق الســد
مســتفتحين بأياديــك الغنــى
والعــز والنصــر وكل جَــدِّ
فاجمع شــتاتنا وأصلح شــأننا
واقــض لنا علــى ظلــوم ند[1]

إن المتأمــل لكتاب الله يجد فــي تضاعيف زواجره وأوامــره ما يخــال أن الأُمــة معه لن تفترق، ولن يكــون بينها إلا المــودة والحنان والشــفقة والوئام، ولكــن يا للخيبــة ما أعظم

(١) وحي العبقرية، للشــيخ الأديــب عبدالله بن علــي الخليلي، ص٢٣٥ ـ ٢٣٦، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

ما منيت به من شـقاق وافتراق، وما غصت به صدورها من سـخائم وأحقاد، ومـا تأجج بين حناياهـا من تعصـب وحمية، حتـى غدت لا تحتكم إلا إلى عواطفهـا، ولا تنقاد إلا لهواها نسيت عهد الله إليها، فأنسـاها الله أنفسها، تتلو آيـات الكتاب وتتلى عليها فـلا تزيد فتنتها إلا استعاراً، ولا نفوسها إلا صدوداً وإعراضاً، كأنما القرآن أنزل ليهمل ويعـرض عنه، وكأنما الدين شرع ليفرق ويشـتت، وكأنما العلاقة بين أتباعه وأهليه بغضاء لا تبقي ولا تذر.

وإذا كانت الأُمة في القرون الخالية عاشـت بين التلاحي والخصام واشتغال بعضها ببعض، فقد ازدادت الآن عما كانـت عليه بالجرأة على سفك بعضها لدم بعض، فقد تحول ما كان بينها من حرب باردة تهيج بأنـواع التبديع والتضليل

والتكفير إلى حرب ساخنة تؤجج باستمرار بوقود من أعز أبناء الأُمة تلتهمهم فوجاً بعد آخر، وتجد الأُمة تنساق إلى أتونها زرافات ووحدانا كأنهم يسارعون إلى جنة عرضها السموات والأرض غير لاوين على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۞ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٢٩ ـ ٣٠]، وغير مبالين بقول النبي ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار**»[(١)].

ومن أعجب شأن الأُمة أن يشتغل بعضهم ببعض ولا يعنوا إلا بأن يسفك بعضهم دم بعض ولا يهمهم أن يجثو عدوهم المشترك على

(١) سبق تخريجه.

صدورهم جميعاً، ويستلب حقوقهم وينتهك حرماتهم ويدوس مقدساتهم، فقد نسوا قضيتهم الكبرى؛ القضية الفلسطينية، بل قبروها تحت أنقاض الفتنة التي أغرت بعضهم ببعض، وأججت الحمية في صدورهم ضد بني ملتهم، فصاروا جنداً لعدوهم الذي يتربص بهم جميعاً، يكفونه شن الحروب على أنفسهم وإبادة خضرائهم وتحطيم قواهم، مع أن تلك القضية ليست قضية أرض سلبت ووطن احتل وشعب شرد فحسب، وإنما تُعدّ من أهم ما يرتبط بدينهم الحنيف وعقيدتهم التي هي عنوان هويتهم وروح حياتهم ومعقد شرفهم وعزتهم، كيف والأرض التي سُلِبُوها هي مقر المسجد الأقصى المبارك، الذي هو قبلتهم الأولى ومسرى نبيهم الكريم عليه أفضل الصلاة

والتسليم، فكيف تقر أعينهم وتبرد حفائظهم وتسكن جائشتهم مع كونه أسيراً في يد أشرس عدو وأعتى مشاقق، ويشغلهم عن الاهتمام باسترداده وتحريره ما يشنونه على أبناء ملتهم من حروب جهنمية طاحنة تأتي على كل شيء، فلا تبقي ولا تذر؟!!.

وإن عجبت فأعجب أن يفوت مداركهم أن ما يأتونه ليس هو إلا لمصلحة عدوهم، وإلا فالخسار سيحيق بهم جميعاً، ومع هذا كله تدفع هذه الفتنة ببعضهم إلى أن يعلن تأييده لهذا العدو في عدوانه السافر على أبناء ملتهم الذين يقفون في وجهه ويتحدون كبرياءه وغلواءه!!!.

ليت شعري؛ ما الذي ينتظره هؤلاء ممن يمكر بإخوانهم ويصبّ على رؤوسهم المصائب صبّاً، أويظنونه أنه سيغدو لهم أخاً حميماً

وسيغمرهم مودة ورحمة وحناناً ويوسعهم من لدنه برّاً وإحساناً؟!! أما آن لهؤلاء أن يفيقوا من هذه السكرة قبل أن يأتيهم اليوم الذي يقولون فيه: «أكلت لما أكل الثور الأبيض» عندما يتفرغ لهم العدو الذي خدموه ويكشر لهم عن أنيابه العصل وينشب فيهم مخالبه؟!.

ومما يؤسف له أن تنطمس من الكل البصائر، وتلتبس عليهم جميعاً الحقائق حتى غدوا يعتقدون أن هذا الذي يرتكبونه في أبناء ملتهم هو الجهاد المقدس وفي ذلك يتنافس المتنافسون!! حتى غدت كل فئة تشجع أبناءها على الاندفاع إلى هذا الشر! كأنهم يرونه في الدنيا سيادة وفخراً وفي الآخرة سعادة وأجراً!.. ولا تكاد تجد في فئة من يرفع عقيرته مستنكرا هذا الصنيع وساعياً إلى إطفاء هذه النار المستعرة،

كأنما لا يوجد في أي طائفة عقلاء يميزون بين الحق والباطل، ويفرقون بين السراء والضراء.

وليس من المعقول أن يكون جميع هؤلاء فقدوا الرشد، إذ لا تخلو طائفة من ذوي البصيرة والرأي، ولكن غلب الجهل على العقل، وظهرت الحمية على الإنصاف، فلم يعد لأولي البصيرة والرأي صوت يُسمع أو دعوة تُستجاب، وقد غلب على أكثر الناس القنوط واليأس، وتمكن من ألبابهم أن هذه هي طبيعة آخر الزمان، فهذا أوان عود الدين إلى الغربة والانحسار واشتعال الفتنة بين جميع الناس، فلم يعد بينهم مجال للنصح والإرشاد، ولا أثر للتذكير والتبصير، وإنما حسب اللبيب أن ينطوي على نفسه ويجنبها الفتنة وما عليه من الآخرين إن ارتكسوا فيها.

وما مثل هؤلاء إلا كمثل أولئك الذين ركنوا إلى المنطق السلبي فعاتبوا الذين وعظوا قومهم وحذروهم عاقبة الفساد، لأن موعظتهم لهم يرونها لا تجدي نفعاً ولا تدفع ضراً، وقد حكى الله جدلهم معهم في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، وقد غفلوا عما أحرزه الواعظون من فائدة صون أنفسهم من العذاب الذي أخذ به الذين ظلموا، مع أن الله تعالى بين ذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، وعليه فإن الواجب على هؤلاء العقلاء أن يقبضوا على أيدي جهالهم، ويقودوهم إلى الرشد

وينقذوهم من الـــردى، وإلا فإن عاقبة الأمر أن تجتاح الفتنة الجميع، وأن يبوء الكل بما جناه المفسدون كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وكم كنت أتحسس صوتاً عاقلاً منصفاً يصدر عـــن قلب مفعم بالإيمـــان متوقـــد بالغيرة على الحق فيـــاض بالإخلاص لله تعالـــى يقف وقفة حيادية بين جميع الأطـــراف المتنازعة لا يتحيز إلى طائفة ولا يتحســـس من أحـــد، وإنما يدعو الكل إلى الرشد والعدل والإنصاف، ونصرة كل مظلوم مـــن أي فئة كان، والقبـــض على يد كل ظالم مهما كان، ولكن يا للأســـف فإن العقلاء الداعين إلى نزع فتيل الفتنة قل من يسلم منهم من التحيز إلى فئة، والتعصب ضد من ســـواها،

وهذا ما جعل أصواتهم تتلاشى بين أمواج الأثير فلا يكون لها تأثير في الأُمة.

لهـذا؛ رأيت من الضـرورة بمـكان أن أقوم بالمبادرة إلى دعوة جميع الأمة إلى طريقة سواء، وهي أن تحاسـب كل فئة منها نفسها، وتتخلص من العقد النفسية وما أورثتها من سخائم وأحقاد غصت بها صدورها، وأججـت الخلاف والفتن بينها وقطعت أوصالها وهـدت بنيانها وأوهنت قواها، وأن تبـادر كل فئة بمد يديها إلى سـائر الفئات حتى تلتحم الأمة وتعـود كياناً واحداً لا يتزعزع ولا يتصدع بتأثير الزعازع، وإنما يتحداها جميعاً كالطود الراسخ الأشم الذي تتعاقب عليه القرون بما يتوالى فيها مـن أعاصير وعواصف، فلا يزداد إلا شمماً ورسوخاً وهو يطويها قرناً بعد قرن من غير أن تؤثر عليه تصدعا أو تضعضعاً.

وإني باسم الإسلام الحنيف الذي يجمع ولا يفرق ويؤلف ولا ينفر ويرأب ولا يصدع أناشد كل فئة من الفئات التي تتحارب وتتناحر بأن تقف وقفة مع نفسها تحاسبها فيها على ما تصنع وتمعن النظر وتعمق الفكر فيه لمصلحة من ولأجل من تقدم على ما تقدم عليه من النحر والانتحار؟؟! فكم من أرواح تزهق؟ وكم من طاقات تهدر؟ وكم من أموال تضاع؟ مع أن الإنسان مسؤول عن نفسه ومسؤول عن غيره ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۞ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠]، فالحياة تنتهي إلى أمد والناس جميعاً في سباق إلى غاية كل ينتهي إليها وهي الموت الذي يعقبه البعث ويجزى فيه كل أحد

بما قدم، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، فكل من أقدم على ظلم غيره إنما هو ظالم لنفسه، وإن أسوأ الظلم عاقبة وأوخمه مآلاً أن يقدم أحد على قتل نفس محرمة بغير حق، ولذلك اقترن وعيد ذلك بالشرك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩].

وهب أن من بين القتلى من يستحق القتل لفساده وإجرامه، فما ذنب الأبرياء الذين لا يفجأون إلا بالموت الزؤام عندما يقدم أحد على تفجير مكان عام تتزاحم فيه الأقدام ويجتمع فيه الصغير والكبير والرجل والمرأة والمذنب

والبريء، فإذا بالانفجار يدوي بينهم فيمزع أشلاءهم ويزهق أرواحهم ويفقدهم نعمة الحياة وفرصة العمل فيها لدنياهم وأخراهم، فيصبحون أثراً بعد عين وخبراً بعد أثر؟!.

وليت شعري؛ أيعد هذا جهاداً يتقرب به إلى الله مع أن الله سبحانه شدد على حرمة الأرواح والأموال، وجعل من أدبيات الجهاد في مقاتلة المعتدين أن لا يتعدوا إلى قتل من لم يقاتل، فقد قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقد كان ﷺ حريصاً كل الحرص على تجنيب شر القتال وآثاره الوخيمة جميع الذين لا يشاركون المقاتلين من أعداء المسلمين ما يقومون به من عدوان على أمة الإسلام، فكان من وصاياه لسراياه قوله: «**انطلقوا**

بسم الله وفي سبيل الله تقاتلون أعداء الله في سبيل الله، لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ولا تغلوا»[1] وعن ابن عمر قال: «وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان»[2] وعن حنظلة الكاتب قال: «غزونا

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٧/٣، رقم ٢٦١٤). والبيهقي (٩٠/٩، رقم ١٧٩٣٢) بزيادة: «...وَضُمُّوا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾» وهو جزء من حديث طويل عند ابن عساكر (٤٩/٢ رقم ٢٧٦٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٩٨/٣ رقم٢٨٥١ و٢٨٥٢)، ومسلم (١٣٦٤/٣ رقم١٧٤٤)، وأبو داود (٥٣/٣ رقم٢٦٦٨ و٢٦٦٩) والترمذي (١٦٣/٤ رقم ١٥٦٩)، وابن ماجه (٩٤٧/٢ رقم ٢٨٤١)، ومالك (٤٤٧/٢ رقم ٩٦٣ و٩٦٤) والدارمي (٢٩٣/٢ رقم٢٤٦٢) وأحمد رقم (٢٢/٢ رقم٤٧٣٩) (٢٣/٢ رقم ٤٧٤٦) (٧٥/٢ رقم: ٥٤٥٧) (٩٢/٢ رقم ٥٦٥٨) (١٠٠/٢ رقم ٥٧٥٣) (١١٥/٢ رقم ٥٩٥٩) (١٢٢/٢ رقم ٦٠٣٧) (١٢٣/٢ رقم ٦٠٥٥) وابن حبان (٣٤٤/١ رقم ١٣٥)، (١٠٧/١١ رقم ٤٧٨٥)، (١١٠/١١ رقم ٤٧٨٩)، (١١٢/١١ =

مع النبي ﷺ فمررنا بامرأة مقتولة، وقد اجتمع عليها الناس، قال فأفرجوا له فقال: «**ما كانت هذه تقاتل فيمن يقاتل، ثم قال لرجل: انطلق إلى خالد بن الوليد فقل له: إن رسول الله ﷺ يأمرك يقول: لا تقتلن ذرية ولا عسيفا**»[1] وعن يحيى بن سعيد، قال: «حدثت أن أبا بكر بعث جيوشاً إلى الشام فخرج يتبع يزيد بن

= رقم ٤٧٩١)، وسنن النسائي الكبرى (١٨٥/٥ رقم ٨٦١٨) (١٨٦/٥ رقم٨٦٢٥) والبيهقي (٧٧/٩ رقم ١٧٨٦٦، ١٧٨٦٧) (٨٢/٩ رقم ١٧٨٨٣، ١٧٨٨٤) (٩١/٩ رقم ١٧٩٣٦)، وأبو يعلى (١١٥/٣ رقم ١٥٤٦) والطبراني في الأوسط (٢٠٩/١، رقم ٦٧٣)، والكبير (٧٢/٥ رقم ٤٦١٧، ٤٦٢٠، ٤٦٢٢) و(٣٨٢/١٢ رقم ١٣٤١٦)، (٧٥/١٩ رقم ١٥٠) وابن الجارود (٢٦١/١) وغيرهم.

(١) أخرجه ابن ماجه (٩٤٨/٢، رقم ٢٨٤٢)، قال البوصيري (١٧٢/٣): هذا إسناد صحيح. والطبراني (١٠/٤، رقم ٣٤٨٩). وعبدالرزاق (٢٠١/٥، رقم ٩٣٨٢)، وأحمد (١٧٨/٤، رقم ١٧٦٤٧)، والنسائي (١٨٧/٥، رقم ٨٦٢٧)، وابن حبان (١١٢/١١، رقم ٤٧٩١)، والعسيف: الأجير.

أبي سفيان، فقال: إني أوصيك بعشر: لا تقتلن صبياً، ولا امرأة، ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة، ولا بقرة إلا لمأكلة، ولا تغرقن نخلاً، ولا تحرقنه ولا تغل، ولا تجبن»[1].

فأين هذه الأدبيات ممن يغشى مجتمعات الناس وأنديتهم وقد لبس حزاماً ناسفاً يفجره في وسط تجمعاتهم لا يبالي أن يقتل نفسه ويقتل كل من حوله من الأطفال الرضع والشيوخ الركع والنساء الغافلات وغيرهم ممن لا علاقة لهم بما يجري من القتال ولا ناقة لهم ولا جمل في الفتنة، بل لا يدري بنفسه عدد من

(١) أخرجه مالك (٤٤٧/٢، رقم ٩٦٥)، وعبدالرزاق (١٩٩/٥، رقم ٩٣٧٥)، وابن أبي شيبة (٤٨٣/٦، رقم ٣٣١٢١)، والبيهقي (٨٩/٩، رقم ١٧٩٢٧) و(٩٠/٩، رقم ١٧٩٢٩) و(٩٠/٩، رقم ١٧٩٣٤).

يرديهم بفعله ومن أي طائفة يكونون؟ ونحن نرى كيف يعلمنا القرآن تفادي التصادم حتى مع أشد الأعداء نكاية بالإسلام وأهله، ومحاربة لله ولرسوله، وكيداً لعباده المؤمنين ولدينهم الحنيف عندما لا يؤمن أن تلفح نار الحرب الأبرياء من الناس، ناهيك من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، فالآية واضحة في أن الله سبحانه لم يقدر صداماً آن ذاك بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر محافظة على أرواح الذين بمكة المكرمة ممن كان يكتم إيمانه من المؤمنين والمؤمنات، فلو تزيلوا أي خرجوا من ذلك المجتمع لسلط الله تعالى المؤمنين على الكافرين، بحيث يصيب الكافرين

منهم عذاب أليم، لكنه تعالى أراد الشفقة بمن في زوايا مكة من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات، وهذا ما ذهب إليه أكثر المفسرين، وقيل إنما عنى بذلك من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء ممن علم الله أنهم إن عاشوا سيكونون من المؤمنين والمؤمنات، وإليكم ما قاله في ذلك بعض أعلام التفسير.

قال الرازي: «يعني كان الكف محافظة على ما في مكة من المسلمين ليخرجوا منها، ويدخلوها على وجه لا يكون فيه إيذاء من فيها من المؤمنين والمؤمنات»[1].

وقال القرطبي: «ولولا أن تطأوا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات لم تعلموهم لأذن الله لكم في دخول مكة ولسلطكم عليهم ولكنا صنّا

(١) التفسير الكبير، ٨٥/٢٨.

من كان فيها يكتم إيمانه وقال الضحاك: لولا من في أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموا أن تطئوا آباءهم فتهلك أبناؤهم»[1].

فليت شعري؛ هل وعى المسلمون اليوم هذا الدرس وعرفوا ما هي قيمة الأنفس البريئة وما هي حرماتها في موازين الإسلام؟ ومهما كان نبل الغاية في الصدام مع الكفار المعتدين ومهما كانت نتيجة ذلك في ظهور الإسلام وبسط سلطانه فإنه لا يسوغ تجاهل حرمات الأنفس البريئة بحيث تعرض للقتل أو الأذى إن لم يمكن تفادي ذلك، فإن الغاية لا تبرر الوسيلة، بل يجب تجنب أي وسيلة شر وعدوان ولو أريد بها تحقيق غاية حميدة.

(١) تفسير القرطبي ٢٨٥/١٦.

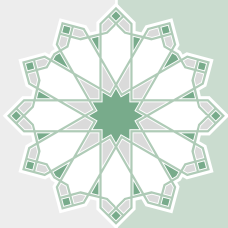

نظرة إلى أسباب الشقاق بين الأمة

هذا؛ ولا تخلو هذه الفتن الناجمة بين الأُمة إما أن يكون منشؤها عصبيات عرقية أو تعصباً مذهبياً، وكل ذلك لا يُسوِّغ تحريك هذه الأضغان وتأجيج هذه الفتن، فإن كانت ناشئة عن عصبيات عرقية، فإن الإسلام لم يقم لذلك وزناً، فقد جاء والناس تتأجج في صدورهم الحمية الجاهلية، ويتقاتلون بسببها، ويتفاخرون بالآباء والأجداد، ويتباهون بالعنصرية فقضى الإسلام بسماحته وعدله على ذلك كله، وبين للناس أنهم لا يفضل بعضهم بعضاً إلا بتقوى الله تعالى، فليس للنسب والحسب قيمة في موازينه، ناهيكم من ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقد سبق بيان رفض الإسلام الحنيف لكل دعوة تدعو إلى ذلك، وأضيف إلى ما سبق أنه ﷺ عد تعيير المسلم للمسلم بأصله الذي ينتمي إليه نكوصاً إلى الجاهلية المقيتة، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر أعيرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم**»[(١)].

(١) أخرجه أحمد (١٦١/٥، رقم ٢١٤٦٩)، والبخاري (٢٠/١، رقم ٣٠)، ومسلم (١٢٨٢/٣، رقم ١٦٦١)، وأبو داود (٣٤٠/٤، رقم ٥١٥٨)، وابن ماجه (١٢١٦/٢، رقم ٣٦٩٠)، ورواه بلفظ آخر أبو داود (٣٤٠/٤، رقم ٥١٥٧).

وذكر ابن بطال في شرحه على صحيح البخاري أنه: روى الوليد بن مسلم، عن أبي بكر، عن ضمرة بن حبيب، قال: كان بين أبي ذر وبين بلال محاورة، فعيره أبو ذر بسواد أُمه، فانطلق بلال إلى رسول الله ﷺ، فشكا إليه تعييره بذلك، فأمره رسول الله ﷺ أن يدعوه، فلما جاءه أبو ذر، قال له رسول الله ﷺ: «**شتمت بلالاً وعيَّرته بسواد أمه؟**» قال: نعم، قال رسول الله ﷺ: «**ما كنت أحسب أنه بقي في صدرك من كبر الجاهلية شيء**»، فألقى أبو ذر نفسه بالأرض، ثم وضع خدّه على التراب، وقال: والله لا أرفع خدي من التراب حتى يطأ بلال خدي بقدمه، فوطأ خده بقدمه»[1].

(١) شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي ت: ٤٤٩هـ، ٨٧/١، مكتبة الرشد ـ السعودية ـ الرياض ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م، الطبعة: الثانية، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم.

فما للمسلمين وهذه النعرات الجاهلية واستعلاء بعضهم على بعض والتعادي بينهم بسبب العنصر أو اللون بعد هذه القوارع والزواجر في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ؟!.

إن الواجب يحتم على الجميع أن يستأصلوا من ثقافتهم ويحذفوا من قواميسهم كل ما يشي بحمية جاهلية أو تحزب عنصري وأن يكونوا جميعاً في ذات الله إخواناً وعلى الخير أعواناً، وأن يردموا كل هوة تفصل بينهم بلحمة الإسلام التي تجمعهم، وأن يطفئوا كل فتنة تؤججها الحمية بفيض الحب في الله الذي يجب أن يغمر قلوبهم.

وإن كانت ناشئة عن تعصب مذهبي فإن عليهم أن يدركوا أن المذاهب ـ إن أخلص أصحابها وجهتهم إلى الله ـ كانت سبب تعمير

لا تدمير ومنشأ وفاق لا شقاق، لأن الاختلاف في الفروع نعمة ورحمة، وثروة للأمة لا تقدر بثمن، فكم يجد المسلم في اجتهاد إخوانه المسلمين من أصحاب المذاهب الأخرى ما يثلج صدره ويحل مشكلته ويكشف غمته، وما من اجتهادٍ مبني على أصل شرعي إلا وله نصيب من الحق، كما قال الإمام السالمي:

«والحق في مسائل الخلاف
عند جميع القائلين واف»[1]

وهب أن من الاجتهاد ما يكون خطأ فإن هذا الخطأ محمول عن المجتهد، بل هو لا يحرم من أجر الاجتهاد، ففي الحديث عن النبي ﷺ:

(١) جوهر النظام في علمي الأديان والأحكام، نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، ٣٣/١، علق عليه أبو إسحاق أطفيش وإبراهيم العبري، الطبعة الثانية عشر، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣.

«إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد»[1]، وإنما يجب على كل مجتهد أن يعتمد ما ترجح عنده من دليل وأن يكون الحق أنشودته ورضوان الله تعالى غايته، وأن يتحرر من أسر الهوى ويتجرد من كل المؤثرات النفسية وغيرها.

وعلينا أن نحسن الظن بإخواننا ولا نكيل لهم

(١) أخرجه من طريق أبي هريرة أحمد (١٩٨/٤، رقم ١٧٨٠٩)، والبخاري (٢٦٧٦/٦، رقم ٦٩١٩)، ومسلم (١٣٤٢/٣، رقم ١٧١٦)، وأبو داود (٢٩٩/٣، رقم ٣٥٧٤)، والترمذي (٦١٥/٣، رقم ١٣٢٦) وقال: حسن غريب. والنسائي (٢٢٣/٨، رقم ٥٣٨١)، وابن ماجه (٧٦٦/٢، رقم ٢٣١٤)، وابن حبان (٤٤٥/١١، رقم ٥٠٦٠)، والبيهقي (١١٩/١٠، رقم ٢٠١٥٥)، وأخرجه من طريق عمرو بن العاص الشافعي (٢٤٤/١)، وأحمد (١٩٨/٤، رقم ١٧٨٠٩)، والبخاري (٢٦٧٦/٦، رقم ٦٩١٩)، ومسلم (١٣٤٢/٣، رقم ١٧١٦)، وأبو داود (٢٩٩/٣، رقم ٣٥٧٤)، وابن ماجه (٧٧٦/٢، رقم ٢٣١٤)، وابن حبان (٤٤٧/١١، رقم ٥٠٦١).

التهم، فإن الأصل في المسلم أن تكون وجهته إلى الله وأن يبتغي بعمله رضوان الله، فاتهام الغير باتباع الهوى في مسائل الفروع خروج عن النهج السليم الذي يجب أن يكون عليه المسلم، وقد وقع الخلاف في الاجتهاد بين أصحاب رسول الله ﷺ حتى في عهده عليه أفضل الصلاة والسلام، وأقرهم على ذلك ولم يعنف أحداً، فعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ نادى فيهم يوم انصرف عنهم الأحزاب: «**ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة**» فأبطأ الناس فتخوفوا فوت وقت الصلاة فصلوا، وقال آخرون: لا نصلّي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت، فما عنف رسول الله ﷺ واحداً من الفريقين[1].

(١) أخرجه البخاري (٣٢١/١، رقم ٩٠٤)، ومسلم (١٣٩١/٣، رقم ١٧٧٠)، وابن حبان (٣٢٠/٤، رقم ١٤٦٢).

بل نزل القرآن مؤيداً لكل فريق من المجتهدين عندما اختلفوا في إبقاء نخيل بني النضير أو قطعها في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥]، فقد روى الطبري عن مجاهد أنه: «نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل وقالوا إنما هي مغانم المسلمين ونزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الإثم وإنما قطعه وتركه بإذنه»[1].

وقال القرطبي: «وذلك أن النبي ﷺ لما نزل على حصون بني النضير وهي البويرة حين نقضوا العهد بمعونة قريش عليه يوم أُحد أمر بقطع نخيلهم وإحراقها واختلفوا في عدد ذلك فقال قتادة والضحاك: إنهم قطعوا من نخيلهم

(١) تفسير الطبري، ٣٤/٢٨.

وأحرقوا ست نخلات وقال محمد بن إسحاق: إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة وكان ذلك عن إقرار رسول الله ﷺ أو بأمره إما لإضعافهم بها وإما لسعة المكان بقطعها فشق ذلك عليهم فقالوا ـ وهم يهود أهل الكتاب ـ: يا محمد ألست تزعم أنك نبي تريد الصلاح؟ أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر وهل وجدت فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد في الأرض؟؟؟ فشق ذلك على النبي ﷺ ووجد المؤمنون في أنفسهم حتى اختلفوا، فقال بعضهم: لا تقطعوا مما أفاء الله علينا، وقال بعضهم: اقطعوا لنغيظهم بذلك، فنزلت الآية بتصديق من نهى عن القطع وتحليل من قطع من الإثم وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله، وقال شاعرهم سماك اليهودي في ذلك:

ألســنا ورثنــا الكتــاب الحكـ
ـيم على عهد موسى ولم نصدف
وأنتــم رعــاء لشــاء عجــاف
بســهل تهامــة والأخيــف
تــرون الرعايــة مجــدا لكــم
لــدى كل دهــر لكــم مجحف
فيــا أيهــا الشــاهدون انتهــوا
عن الظلــم والمنطــق المؤنف
لعــل الليالي وصــرف الدهور
يدلــن مــن العــادل المنصف
بقتــل النضيــر وإجلائهــا
وعقــر النخيــل ولــم تقطــف

فأجابه حسّان بن ثابت:

تفاقد معشــر نصــروا قريشــاً
وليــس لهــم ببلدتهــم نصيــر

هــمُ أوتــوا الكتــاب فضيعوه
وهــم عمي عــن التــوراة بور
كفرتــم بالقــران وقــد أبيتــم
بتصديــق الــذي قــال النذيــر
وهــان على ســراة بنــي لؤي
حريــق بالبويــرة مســتطير»[1]

وقد ترك الصحابة رضي الله تعالى عنهم باجتهادهم وتعدد آرائهم أعظم ثروة للأُمة في الفِقه، واستهدى من بعدهم بآرائهم المتعددة في الاجتهاد في النوازل.

وقد عد السلف الصالح اختلاف الصحابة رضي الله تعالى عنهم توسعة للأُمة وتنفيساً لها لئلا تضيق بها الحال عندما تجدهــم متفقين علــى رأي واحد، فعن القاسم بن محمد، قال: «كان اختلاف أصحاب

(١) تفسير القرطبي، ٧/١٨.

رسول الله مما نفع الله به، فما عملت منه من عمل لم يدخل نفسك منه شيء»[1].

(١) الفقيه والمتفقه، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ت: ٤٦٢هـ، ١١٦/٢، دار ابن الجوزي ـ السعودية ـ ١٤٢١هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: أبو عبدالرحمن عادل بن يوسف الغرازي. وينظر المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، أبو الخير محمد بن عبدالرحمن بن محمد السخاوي ت: ٩٠٢هـ، ٧٠/١، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عثمان الخشت، والأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى، نور الدين علي بن محمد بن سلطان المشهور بالملا علي القاري، ت: ١٠١٤هـ، ٨٥/١، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م، تحقيق: محمد الصباغ، وكشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي ت: ١١٦٢، ٦٦/١، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤٠٥، الطبعة: الرابعة، تحقيق: أحمد القلاش، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، العلّامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ت: ١٢٧٠هـ، ٢٤/٤، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

وعن عمر بن عبدالعزيز أنه كان يقول: «ما سرني لو أن أصحاب محمد لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم يكن رخصة»[1].

وإذا كان الصحابة رضي الله عنهم لم تضق صدورهم مما وقع بينهم من الاختلاف في فهم دلالات الأدلة الشرعية وما يستلهم منها من أحكام الشرع، فما بالنا تضيق صدورنا من ذلك، أولم تكن لنا فيهم أسوة حسنة؟؟! وإنما يجب علينا في هذا الاختلاف أن نلتزم الإنصاف وأن نبحث عن الدليل، فنكون وراءه، وأن لا نتعصب لأحد بعينه مهما كان، فالكل يؤخذ من كلامه ويرد إلا ما ثبت عن رسول الله ﷺ، وعلينا مع ذلك أن

(١) المراجع الخامسة السابقة، وينظر أيضاً فتاوى الرملي، شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة شهاب الدين الرملي ت: ١٠٠٤هـ، ١٨٥/٦.

لا نجعل قول أحد من الأُمة في مقام قول الله تعالى أو قول رسوله ﷺ، فإن على الكل أن يرجع عن قوله وقول من يتبعه إلى قول الله تعالى وقول رسوله ﷺ، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقد بيّن الله تعالى ما يجب أن نرجع إليه للاحتكام في فضّ نزاعنا ورفع خلافنا عندما قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وبيّن ضرورة تحكيم الرسول ﷺ في جميع أمورنا، وأن لا نجد في صدورنا حرجاً مما قضى، ونـاط بذلك إيماننا حيث قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ

فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، وبيّن أن طاعته ﷺ إنما هي من طاعة الله في قوله: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠].

وعليه؛ فإنه يجب التخلص من جميع العقد التي تحول دون اتباع أمر الله وأمر رسوله ﷺ، وتجعل اتباع أئمة المذاهب هو الأصل الأصيل في الدين، بحيث تطوع لأقوالهم الأدلة الشرعية حتى تتفق معها!.

وكم نجد فيما قاله المنصفون من الأمة ما يؤكد هذا الذي قلناه ومن ذلك قول الإمام السالمي:

ولا تناظر بكتاب الله
ولا كلام المصطفى الأواه

معنـــاه لا تجعـــل لـــه نظيـــراً
ولـــو يكـــون عالمـــاً خبيـــرا[1]

ومثله قول الإمام أبي نبهان: «إياك أن تلتفت إلـــى من قال، بـــل إلى مـــا قال»، ومعنـــاه نبذ التعصب للقول بســـبب قائلـــه، وإنما يجب أن ينظر فيما يقوله كل عالم إلـــى ما قاله، هل هو موافق للأدلة الشرعية فيؤخذ به، أو هو مخالف لها فيرد؟.

ومع هذا؛ فإنه يجب أن لا تنزل الأدلة الظنية مكان الأدلة القطعية فإن البون شاسع بين هذين النوعين من الأدلـــة، فمن خالف الدليل القطعي هلك إن كان قطعـــي المتن والدلالة معاً، وذلك بأن يكون متنـــه ثابتاً بالتواتـــر الموجب للعلم

(١) جوهر النظام، مصدر سابق، ص٧.

القطعي، وأن تكون دلالته نصية، أما الظني فلا يهلك من خالفه إن كان في خلافه غير متبع لهواه، وإنما ترجح عنده دليل آخر تصوره أقوى منه، وتدخل في ذلك الأدلة غير النصية كالمجملة والظاهرة وإن كانت ثابتة بالتواتر القطعي، ولذلك قالوا في العام بأنه: ظني الدلالة وإن كان قطعي المتن[1]، وذلك لكثرة

(١) شرح المقاصد في علم الكلام، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني ت: ٧٩١هـ، ٢٧٩/٢، دار المعارف النعمانية ـ باكستان ـ ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، الطبعة: الأولى، وينظر شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفِقه، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني الشافعي ت: ٧٩٢ هـ، ٣٩/٢، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، تحقيق: زكريا عميرات، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، تاج الدين أبي النصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ت: ٦٤٦هـ، ٣٢٣/٣، عالم الكتب ـ لبنان، بيروت ـ ١٩٩٩م ـ ١٤١٩هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: علي محمد معوض، عادل =

ما يرد عليه من التخصيص، وكذلك الأدلة الظنية المتون وهي المروية من طرق الآحاد، ولو كانت نصية في دلالتها.

= أحمد عبدالموجود، البحر المحيط في أصول الفِقه، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي ت: ٧٩٤هـ، ١٩٩/٢، دار الكتب العلمية ـ لبنان، بيروت ـ ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: ضبط نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: د. محمد محمد تامر، التقرير والتحرير في علم الأصول، ابن أمير الحاج. ت: ٨٧٩هـ، ٣١١/١، دار الفكر ـ بيروت، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، تيسير التحرير، محمد أمين المعروف بأمير بادشاه ت: ٩٧٢، ٢٧٩/١، دار الفكر ـ بيروت، طلعة الشمس، نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، ٢٤٦/١ ـ ٢٤٨، دار الراشد، بيروت، لبنان ـ مكتبة الإمام السالمي ـ بدية، سلطنة عُمان، ط١، تحقيق عمر حسن القيّام. جوهر النظام في علمي الأديان والأحكام، نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، ٣٢/١ طبعة ١٤٢٧هـ الرابعة عشر، مكتبة الإمام نور الدين السالمي، السيب الحيل الجنوبية، التشريع الجنائي في الإسلام، عبدالقادر عودة، ت: ١٣٧٣هـ، ٢١٥/١.

وقد نصَّ على هذا كلــه ذوو الخبرة في هذا المجال، وإليك ما نص عليــه العلّامة المجتهد الســيد محمد رشيد رضا في تفســيره «المنار»: «إن الأحكام الاجتهادية التــي لم تثبت بالنص القطعي الصريح رواية ودلالة لا تجعل تشــريعاً عاماً إلزامياً بل تفوض إلــى اجتهاد الأفراد في العبادات الشــخصية والتحريــم الديني الخاص بهم، وإلى اجتهاد أُولي الأمر من الحكام وأهل الحل والعقد فــي الأمور السياســية والقضائية والإدارية، ومأخذه الآية ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقــرة: ٢١٩]، ووجهــه: أن هذه الآية تدل على تحريم الخمر والميســر بضرب من الاجتهاد في الاستدلال، وهو أن ما كان إثمه وضرره أكبر من نفعه فهو محرم يجب اجتنابه،

وذلك ما فهمه بعض الصحابة فامتنعوا من الخمر والميسر، ولكن النبي ﷺ لم يلزم الأُمة هذا، بل أقرَّ من تركهما ومن لم يتركهما على اجتهادهما إلى أن نزل النص القطعي الصريح بتحريمهما والأمر باجتنابهما في سورة المائدة فحينئذٍ بطل الاجتهاد فيهما، وأهرق كل واحد من الصحابة ما كان عنده من الخمر وصار النبي ﷺ يعاقب من شربها.

وبناءً على هذه القاعدة كان يعذر كل أحد من سلف الأُمة من خالفه أو خالف بعض الأخبار والآثار الاجتهادية غير القطعية رواية ودلالة، ولم يوجبوا على أحد أن يتبع أحداً في اجتهاده كما يفعل الخلف المقلدون.

وبناءً على هذه القاعدة لم يقبل الإمام مالك رحمه الله تعالى من المنصور أولاً، ولا من هارون

الرشيد ثانياً أن يحمل المسلمين على العمل بكتبه ولا بالموطأ الذي هو أصح ما رواه من الأخبار المرفوعة وآثار الصحابة، وواطأه عليه جمهور من علماء عصره».اهـ[1]

وهذا يعني ضرورة التسامح بين الأُمة فيما اختلفوا فيه من الأمور الفرعية التي ثبتت أحكامها بالأدلة الظنية، وإنما يجب الاحتراز من مخالفة القطعي وهو ما كان نصّاً في موضوعه، مع تواتره كالأدلة النصّية في القرآن الكريم أو في السُنَّة المتواترة عن النبي ﷺ، ولا يسوغ التسامح في ذلك، بل مخالفة القطعي موجبة للكفر المخرج من الملة إن لم يكن ذلك

(١) تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن ملا علي خليفة القلموني الحسيني، ت: ١٣٥٤هـ، ٩٩/١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠.

بتأويل، والتأويل إنما يجنب صاحبه الحكم عليه بالردة، ولكن لا يجنبه الانتكاس في الإثم والارتكاس في الضلال.

ولأجل التفرقة بين هذا وذاك لا بد من التمييز بين مسائل الرأي ومسائل الدين، فمسائل الرأي هي أوسع من رحاب الفضاء، فلذلك لا يضيق الخلاف فيها ومسائل الدين هي أضيق من سم الخياط، فلذلك لا يجوز فيها الاختلاف، لأن الدين ما تجب الدينونة به ولا يجوز العدول عنه، ومن هنا كانت كل مخالفة له مخالفة لأمر الله تعالى وخروجاً عن طاعته واتباعاً لغير سبيل المؤمنين، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وتدخل في ذلك مخالفة ما نصَّ عليه القرآن أو ما نصّت عليه السُنَّة المتواترة أو ثبت بالإجماع القطعي، وهو المنقول بالتواتر، ولذلك فرق العلماء بين ما يُعدّ ديناً أو يعد مذهباً، فضيقوا الخلاف في الأول ووسعوه في الثاني.

هذا؛ وإنني من منطلق الحرص على وحدة الأُمة وجمع شتاتها وردم خلافها، أدعو كل فئة منها إلى السعي إلى هذا المطلب النبيل والغاية المحمودة، وأن يظافروا جميعاً جهودهم من أجل النجاح في هذا، وتحقيق هذه الأمنية الغالية، وأطالب العلماء ـ الذين حملهم الله تعالى أمانة العلم وألزمهم أن يبينوه للناس ولا يخفوه ـ بأن يكونوا هم رادة الجميع في هذا الأمر، وأن لا يترددوا في أن

يمضوا قُدماً فيه ويواجهوا جميع الصعاب والتحديات، ويصبروا على كل ما عسى أن يلقوه من الأذى في سبيل ذلك، فإن ذلك مما يندرج في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما يستلزمان الصبر والمصابرة، فقد حكى الله عن لقمان أنه قال فيما يوصي به ابنه: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، فالعلماء هم أقوى ملكة واقتداراً في أن يبينوا لدهماء الناس خطأ ما يرتكبونه؛ من إشعال الفتن وتسعيرها ومعالجة الخطأ بالخطأ ومقاومة الشر بالشر، وهم أعظم مسؤولية أمام الله سبحانه عن هذا الأمر فما أجدرهم أن يرعوا أمانة الله، وأن يصلحوا بين عباده، وأن يدركوا أن كل قطرة دم تسفك من أي أحد

من هذه الأُمة، وكل شيء من المال يتلف من ثروتها إنما هو على حساب الأُمة جميعاً وليس ذلك لمصلحة أحد منها، وإنما هو لمصلحة العدو الذي يتربص بها جميعاً الدوائر، ويسعى إلى تشتيتها وإيهانها ويقضي وطره منها جميعاً بسوقها إلى وطيس الفتنة المستعر ليكفى مئونة حربها بإغراء بعضهم على بعض والاستئثار بثرواتهم عندما تغدق على خزائنه إغداقا، وتتدفق إلى حوزته أنهارا وأهلها محرومون منها، ومن منافعها ليس لهم نصيب إلا الكد في جمعها والتعب في حملها وتقديمها إلى خزائن العدو، مع ما ينوؤن من مصائب ومحن مما يستعر بينهم من الفتن.

كالعيس في البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمول

إن الأُمة جميعاً عليهـــا أن تعي هذه الحقائق وأن تكتشف هذه الخفايا، وأن تكون خبيرة بما يبيت لها، وأن تستظهر ما يضمره لها عدوها في طواياه، وأن لا تكون كالأنعام التي تســـاق إلى مجازرها فتنساق، والعلماء خير من يبصرها بهذا ويأخذ بيدها لئلا تتردى في الهلكة وتهوي في مهاويها إلى غير قرار.

الكلمة الطيبة

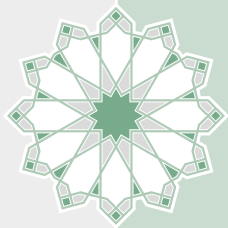

خطة لإنقاذ الموقف

هـــذا؛ وأرى مـــن الضرورة بمـــكان أن أقدم للأمة خطة عملية لردم هذه الهوة بينها، وإطفاء هذه النار المشتعلة في أوصالها، فإن النجاح في ذلك مرهون بأمور.

أولها: أن تترسخ روح التقوى والخشية من الله تعالى في نفوس الجميع

فإن تقوى الله هي ملاك كل خير ومنشـــأ كل ألفة وأصل كل وئـــام، ولذلك أمر الله تعالى بها في معرض دعوة الأمة إلى الوحدة والوئام عندما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ

جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٣]، وهل اجتمع السلف الصالح فتآلفت منهم القلوب وصفت منهم السرائر إلا بالتقوى والاعتصام بحبل الله وعصيان النفوس في هواها وإيثار طاعة الله على كل نزعة نحو الفرقة والشقاق.

ثانيها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

فبهما يميّز بين الحق والباطل ويفرق بين الهدى والضلال، ويحرص كل أحد على محاسبة نفسه وأداء كل ما عليه من حق لغيره، ولذلك أمر الله تعالى هذه الأمة أن تكون أمة دعوة إلى الخير وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر في معرض تحريضها على الوفاق وتحذيرها من الشقاق، وذلك في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]،

فإن توسط هذه الآية الكريمة بين الآيات الحاضة على المودة والألفة والانسجام والمحذرة من الخلاف والشقاق والتمزق دليل بين على أنه لا يتوصل إلى ما يبتغى من ألفة الأُمة وانسجامها، ولا يتقى ما تحذر منه من خلافها وشقاقها إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد دلَّ القرآن الكريم على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما أهم ما يعقد به ربط الأُمة بعضها ببعض، وجعلها كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً وأعظم ما يناط به وئامها وألفتها واتحادها في المشاعر الباطنة والأعمال الظاهرة، وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، فقد صدر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فنصَّ عليهما في تجسيد ولاية المؤمنين والمؤمنات بعضهم لبعض قبل ذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو دليل بين على أنهما أهم ما يؤثر في نفوسهم حتى يتولى بعضهم بعضاً ويرتبط بعضهم ببعض، وما ذلك إلا لأن كل واجبات الدين إنما يحافظ عليها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالصلاة نفسها بحاجة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى تتم المحافظة عليها وإقامتها بحسب ما يرضي الله سبحانه، وكذلك الزكاة، ومعنى ذلك أن مصالح الدين والدنيا وخير الآخرة والأولى معقودة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ودلَّ القرآن على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تزكية النفس بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة من أهم عوامل الانتصار على العدو والتمكين والاستخلاف في الأرض، فقد قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١]، كما دلَّ على أن السكوت عن المنكرات وتركها تتفشى فيما بين المجتمعات والأمم من أسباب لعنة الله تعالى الماحقة لكل خير والباعثة لكل شر، كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩].

ثالثها: الإنصاف من النفس قبل الانتصاف من الغير

فإن ذلك مما يبعث إلى التنافس بين جميع الطوائف للسباق في مضمار أداء الحق للخصم قبل طلبه منه، وهذا مما يرجع إلى العدل الذي يجب أن يكون هو الميزان القسط الذي توزن به الأمور كلها، وهو السور المتين الذي تصان به الأمة من الهوان والضعف، فيجب أن يكون شاملاً للجميع بحيث لا يفرق فيه بين البعيد والقريب والبغيض والحبيب والمؤمن والكافر والبر والفاجر، فالله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

﴿ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، وقد أمر الله تعالى به في الحكم بين جميع الناس لا بين الأُمة وحدها عندما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨].

ولم يكن هذا في الإسلام تنظيراً فحسب، وإنما كان منهجاً عملياً طبق تطبيقاً دقيقاً حتى شمل من هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، إذ نزل قرآن من عند الله تعالى لفضح مؤامرة كانت من بعض المحسوبين على الأُمة الذين لم يتغلغل الإيمان في أعماقهم فأرادوا أن يدرأوا

تبعة جريمة ارتكبها أحدهم وأن يلزوها لزاً بيهودي بريء كاد يبوء بسوءٍ عاقبتها لما ظهر من القرائن المؤيدة لدعوى المتآمرين، ولكن أبى الله تعالى إلا أن يكشف خبيئة هذا الأمر ويبرئ نبيه ﷺ من الاندفاع وراء رغبات المتآمرين ويسلمه من الوقوع في الفخ الذي نصبوه له، إذ أنزل عليه قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۞ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۞ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۞ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ

ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۞ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۞ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١١٣].

قال ابن جرير: «حدثني محمد بن عمرو قال ثنا أبو عاصم عن عيسى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قول الله ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ

﴿بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ فيما بين ذلك في طعمة ابن أبيرق ودرعه من حديد التي سرق، وقال أصحابه من المؤمنين للنبي ﷺ: اعذره في الناس بلسانك ورموا بالدرع رجلاً من يهود بريئاً»[1].

وقال صاحب «المنار»: «وروي عن ابن زيد أن رجلاً سرق درعاً من حديد وطرحها على يهودي فقال اليهودي: والله ما سرقتها يا أبا القاسم، ولكن طرحت عليَّ، وكان للرجل الذي سرق جيران يبرئونه ويطرحونه على اليهودي ويقولون: يا رسول الله هذا اليهودي الخبيث يكفر بالله وبما جئت به، قال: حتى مال النبي ﷺ ببعض القول، فعاتبه الله ﷻ في ذلك

(١) تفسير الطبري، ٥/٢٦٥.

فقال وذكر الآيات ثم قال في الرجل: ويقال: هو طعمة بن أبيرق»[1].

وقال أيضاً: «وقد اختار أكثر المفسرين أن الخائن هو طعمة وأن اليهودي هو الذي كان صاحب الحق»[2].

وحسبك أن ينزل قرآن يتلى في الصلوات وغيرها إلى أن تقوم الساعة لأجل تبرئة يهودي مما ألصق به من التهمة الباطلة، وفي ذلك تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يلتزموا العدل مع أي أحد كان، ولا يعدلوا عنه لهوى في نفوسهم، فمهما كانت عداوة العدو يجب أن لا تحجبه عن العدل والإنصاف فيما يستحقه، ومهما كانت محبة الحبيب يجب أن لا تصونه

(١) تفسير المنار، ٣٢٠/٥.

(٢) المصدر السابق.

من الحكم عليه بالعدل وأخذ الحق منه لأهله إن وجب عليه.

وهذا؛ يقتضي أن يتعاون المسلمون جميعاً على اختلاف مذاهبهم الفكرية أو الفقهية على نصرة كل مظلوم، وأن لا تكون عداوته لدى بعضهم أو جميعهم مانعة من نصرته وإنصافه ممن ظلمه، سواء كان ظلمه من قبل أبناء الملة أو غيرهم، ولو كان وقوعه عليه من أحب حبيب وأقرب قريب، وهذا ما يعنيه قول رسول الله ﷺ: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**». قيل: يا رسول الله، هذا أنصره مظلوماً، فكيف أنصره إذا كان ظالما؟ قال: «**تحجزه تمنعه، فإن ذلك نصره**»[1].

(١) أخرجه (أحمد (١٤/١٩ رقم: ١١٩٤٩) والبخاري (١٢٨/٣ رقم: ٢٤٤٣)، ورقم: (٢٤٤٤)، ورواه بلفظ قريب منه مسلم (١٩٩٨/٤ رقم ٢٥٨٤)، والدارمي (٤٠١/٢، رقم ٢٧٥٣).

وكان ﷺ لنزعته إلى الخير وكراهته للظلم شهد حلفاً قبل أن يوحى إليه، وكان مما يعتد به، ويعده من المناقب، لأن فيه رفع الظلم عن المظلومين، فقد قال: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت**»[1]، وذكر البيهقي عن القتيبي أنه: «كان سبب الحلف أن قريشاً كانت تتظالم بالحرم، فقام عبد الله بن جدعان والزبير بن عبد المطلب فدعاهم إلى التحالف على التناصر، والأخذ للمظلوم من الظالم، فأجابهما بنو هاشم وبعض القبائل من قريش. قال الشيخ: قد سماهم ابن إسحاق بن يسار قال: بنو هاشم بن عبد مناف، وبنو

(١) أخرجه البيهقي في سننه (٥٩٦/٦ رقم: ١٣٠٨٠).

المطلب بن عبد مناف، وبنو أسد بن عبد العزى بن قصي، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو تيم بن مرة.

قال القتيبي: فتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان، فسموا ذلك الحلف حلف الفضول تشبيها له بحلف كان بمكة أيام جرهم على التناصف والأخذ للضعيف من القوي، وللغريب من القاطن، قام به رجال من جرهم يقال لهم: الفضل بن الحارث، والفضل بن وداعة، والفضل بن فضالة، فقيل حلف الفضول جمعا لأسماء هؤلاء. قال غير القتيبي في أسماء هؤلاء: فضل وفضال وفضيل وفضالة. قال القتيبي: والفضول جمع فضل، كما يقال: سعد وسعود، وزيد وزيود»[1].

(١) المرجع السابق.

وقال الحافظ ابن حجر: «وذكروا في سبب ذلك أشياء مختلفة محصلها أن القادم من أهل البلاد كان يقدم مكة فربما ظلمه بعض أهلها فيشكوه إلى من بها من القبائل فلا يفيد فاجتمع بعض من كان يكره الظلم ويستقبحه إلى أن عقدوا الحلف وظهر الإسلام وهم على ذلك»[1].

وإذا كان هؤلاء الذين انبروا لرفع الظلم عن الناس في الحرم تحلوا بهذه المنقبة وسارعوا إلى هذا الخير وهم في جاهليتهم ـ حاشا رسول الله ﷺ ـ أفلا يجدر بالمسلمين اليوم ـ وهم يرون بأم أعينهم ما يموج به هذا العالم

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ٤/٤٧٣، دار المعرفة ـ بيروت، ١٣٧٩هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب.

من فتنة وظلـــم ـ أن يتحالفوا جميعاً ويتناصروا على رفع الظلم عن جميع المظلومين ـ لا سيما أبناء هذه الأُمة ـ كيف مـــا كان الظالم في قربه منهـــم ومودتهم له أو بعده عنهم وشـــنآنهم له، وإن تعذر أن يقوموا جميعـــاً بذلك فعلى الأقل أن يتجـــرد لهذا الأمر العقلاء مـــن أي فئة منهم حتى يضربوا مثلاً رائعاً فـــي العدل والإنصاف، ويكونوا رادة في جمع كلمة الأمة على ما يحبه الله تعالى ويرضاه، وأن يشـــمل هذا الخير منهم جميع الناس من غير تمييز بيـــن من يَمِقُونَه أو يمْقُتُونَه، فـــإن ذلك أدعى إلـــى تأليف القلوب وتغليـــب العقـــول علـــى العواطـــف، وترجيح المصالح على الأهواء.

فليت شعري؛ أما آن الأوان لهذا الأمر حتى يتجلى الإسلام بجلاله واعتداله وكماله وجماله،

وتطوى هذه الصورة المشوهة التي يمثل بها الإسلام، فلا تستدعي إلا نفرة الناس عنه وتحقيرهم لأهله وإعراضهم عن دعوته؟.

رابعها: عرض ما تتفق عليه الأمة دون ما تختلف فيه لتضييق فجوة الخلاف بينهم

فكم من أسباب داعية إلى الوحدة والإتلاف بين الأُمة، فهم يؤمنون بإلٰه واحد ويتبعون نبيّاً واحداً، ويتمسكون بكتاب واحد ويحجون بيتاً واحداً ويستقبلون قبلة واحدة، وقد اتفقوا على أركان الإسلام جميعاً، كما اتفقوا على أركان الإيمان ما عدا الركن الأخير، وهو الإيمان بـ (قضاء الله وقدره) الذي كان لبعض الأُمة فيه موقف يختلف عن موقف جمهورها، ومعنى ذلك أن أصول ما يتفقون عليه أكثر بكثير مما يختلفون فيه.

وإنما بقي الخلاف في جزئيات تُعدّ تفسيراً للأصل الذي اتفقوا عليه وهذه إما أن يتسامحوا فيها نظراً إلى قوة الأصل الذي اتفقوا عليه، كما قال الإمام السالمي في «كشف الحقيقة»:

ونحن لا نطالب العبادا
فوق شهادتيهم اعتقادا
فمن أتى بالجملتين قلنا
إخواننا وبالحقوق قمنا
إلا إذا ما نقضوا المقالا
واعتقدوا في دينهم ضلالا
قمنا نبين الصواب لهم
ونحسبن ذلك من حقهم
فما رأيته من التحرير
في كتب التوحيد والتقرير

رد مسائـــل وحـــل شبـــه
جـــاء بهـــا مـــن ضـــل للمنتبه
قمنـــا نردهـــا ونبـــدي الحقـــا
بجهدنا كـــي لا يضـــل الخلقا
لو ســـكتوا عنـــا ســـكتنا عنهم
ونكتفي منهـــم بأن يســـلموا[1]

وهـــو مبني على ما كان عليه رســـول الله ﷺ عندمـــا كان يدعـــو النـــاس إلى الإيمـــان وإلى الإســـلام، فقد كان يدعوهـــم إلى الشـــهادتين والتزام ما تقتضيانه عقيدة وعملاً، فقد ثبت في حديث ابـــن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «**أُمـــرت أن أقاتل الناس حتـــى يشـــهدوا أن لا إلٰـــه إلا الله وأني رســـول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الـــزكاة فإذا**

(١) كشـــف الحقيقة مع أنوار الحقيقة، ص٢٥، المطابع العالمية، سلطنة عُمان.

فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»[1]، وجاءت بهذا أحاديث كثيرة من طرق متعددة سبق ذكرها، وهو مما يؤكد أن الشهادتين هما أصل الاعتقاد في الإسلام، فمن أتى بهما ولم ينكر شيئاً مما جاء به الإسلام من عقيدة أو تشريع كان مسلماً حقاً، له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين، وعليه فإنه لا يضير الأُمة شيئاً أن يكتفوا بهذا الأصل في الاعتراف بإسلام وإيمان من جاء به وأن يسكتوا عما دونه.

وإما أن يطرحوا المسائل الخلافية على بساط البحث بين العلماء وحدهم لئلا يبلبلوا أفكار العامة، ويكون كل باحث في ذلك حريصاً على إنصاف الآخرين من نفسه بحيث لا ينشد إلا

(١) سبق تخريجه.

الحقيقة ولا يتحيز إلا للحق، فلا يهمه أن يتبيّن الحق عنده أو عند غيره، وأن يكون الاحتكام في قضايا الاعتقاد إلى نصوص القرآن الكريم ونصوص السنة المتواترة عن النبي عليه أفضل الصلاة والسلام عملاً بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥]، وقوله: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء: ٨٣]، وعليه فيمتنع التكفير والتبديع والتضليل والتفسيق إلا بمخالفة هذين الأصلين العظيمين، فلا يجعل كلام أحد من الناس بمنزلة كلام الله تعالى وكلام

رسوله ﷺ، فكل الناس يؤخذ من كلامهم ويرد إلا من وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

على أن المناظرة والبحث في هذه القضايا يجب أن يكونا من جميع الأطراف خالصين لوجه الله تعالى، وأن يتفق الكل على خطة تُعدّ لذلك مرضية لجميع الأطراف وأن يتفادى فيهما أي تجريح أو استفزاز لأي أحد، وأن يتعهد الكل بأن يسلم للحق متى بان عند أي أحد، مع ضرورة الالتزام بأدب الإسلام في المناظرة بحيث لا تخرج عن لين الحديث وحسن الأسلوب عملاً بقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، على أن هذه

الآية نزلت ـ بلا ريب ـ في توجيه النبي ﷺ إلى دعوة الذين أشركوا إلى الإسلام، كيف يجب أن يكون أسلوبها لطيفاً جذاباً يأسر القلوب ويبلغ إلى عمق وجدانها، كما يصل إلى موضع الإقناع من العقول، وإذا كان هذا هو التوجيه الرباني في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام فكيف بدعوة من هم من أبناء هذه الأُمة الذين يعمهم وصف الإسلام ولقب المسلمين، فإنهم ـ بلا ريب ـ أولى بالرفق والكلمة الهادئة الهادفة التي تؤنس القلوب ولا توحشها، وتقرب الأفكار ولا تباعدها، وهذا مما يؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥].

وقد أرشدنا الله تعالى في مجادلة أهل الكتاب أن لا تكون إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وهم المتعنتون المكابرون للحق، وذلك في قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فالمسلم أولى بهذا اللطف عندما يجادل لأجل إقناعه بقبول حق جهله أو ترك باطل تلبس به لالتباسه عليه.

خامسها: تعميم ثقافة جديدة تدعو إلى الوحدة والوئام

من خلال وسائل الإعلام والمناهج الدراسية والبرامج الثقافية، وأن يكيف بمقتضى ذلك أدب الأُمة؛ لأجل أن تنشأ الناشئة على حب الألفة والوفاق وكراهة البغضاء والشقاق، وأن يبصر

الجميع بما آلت إليه الأُمة من الضعف والهوان والذلة بسبب تفرقها وشقاقها، وأنه لا مناص لها عن علاج نفسها بهذا العلاج الرباني، الذي يسري في أعماقها إن هي عولت عليه، حتى يأتي على مكامن أدوائها ومناشئ عللها فيقضي عليها جميعاً، فتعود إلى ما كانت عليه من قبل من الصحة واعتدال المزاج والقوة والكرامة والعزة، فتعود من جديد إلى أداء رسالتها في الحياة، وبث خيرها بين الناس بقيادة القطعان البشرية الضالة إلى ما فيه هدايتها ورشدها وسلامتها.

سادسها: التظاهر على تطبيق الشريعة الإسلامية في الحياة العامة والخاصة

ذلك لأن شريعة الله تعالى فيها الرحمة بكل البشر والإنصاف لجميع الفئات والرفق بكل ما في الوجود، حتى البهائم العجم والجماد

الصلب وكل صامت وناطق ومتحرك وساكن، وهي توفي لكل ذي حق حقه وتنسق بين الحقوق فلا توفر جانباً على حساب غيره وفيها الدقة المتناهية في تقدير الحقوق وضبطها، وبها رفع الآصار والأغلال التي كانت على الأمم السابقة، فلا يجد فيها أحد سوى الفطرة إلا ما تقرّ به عينه ويريح نفسه ويرضي ضميره، كيف وهي حكم الله العادل وميزانه القسط أنزلها الذي يعلم السر في السموات والأرض، فجاءت منسجمة مع طبيعة الخلق ومتجاوبة مع سنن الفطرة، ولذلك تضفي عندما تطبق الأمن والاستقرار على جميع أرجاء الأرض.

وقد وفت بجميع الأغراض ووسعت كل ما يستجد في الوجود لا يوجد فيها نشاز ولا اضطراب، ولا يعثر فيها على خلل ولا إفراط لأنها

من رب الوجود الـذي أحاط بكل شـيء علماً، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [المُلك: ١٤]، فهي تغني عن كل ما سواها ولا يغني عنها شيء.

ومن حيث إنهـا أتت من رب العبـاد فإنها تجمع الشـتات وترأب الصدع وتنتزع السخائم والأحقاد وتأتـي على الفتن ما ظهـر منها وما بطن، فلو أن الأمة حرصت على تطبيقها مخلصة لوجه الله تعالى لحلت مشكلاتها وجمعت جميع فئاتهـا وألفت بين قلوبها وأشـاعت بينها روح الألفة والوئام، وألبستها لبوس العز والفخار.

سابعها: الحذر من كل محاولة لتكدير الصفو وتمزيق الصف

ذلك لأن الأُمة غير متروكة لما يورثها الخير والعـزة والكرامة، فـإن أعداءهـا يتربصون بها الدوائر ويسعون باستمرار لتمزيق شملها وتوهين

قواها وغرس العداوة والبغضاء بينها، وكم نجد في كتاب الله تعالى من التحذير من هذه المكائد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ۞ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠١]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۞ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٩ ـ ١٥٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۞ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٠].

وقال جلَّ جلاله: ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۞ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى

ﭐللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۞ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة: ٥٠ ـ ٥٢].

وهذا التحذير بعضه من أهل الشرك أو الكفار من أهل الكتاب، وبعضه من المنافقين، فيجب الحذر منهم جميعاً وعدم الاستهانة بما يكيدونه ويمكرونه، فإنهم لا يفتأون يبثون بين الأمة الشقاق ويوغرون صدور بعضهم على بعض، ﴿ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [المائدة: ٦٤].

ثامنها: طي صفحة الماضي في تاريخ الأُمة.

بحيث لا تنبش الفتن التي نجمت في القرن الأول مهما تأتى ذلك، فإن الماضي لا يدرك، وقد

مضى بحلوه ومـــره، فلا معنى لاجتـــرار أحداثه، وهل يورث ذلك إلا تعميق الجراح وتنفير القلوب وإيغار الصدور؟ وقد أرشـــدنا إلـــى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقـــرة: ١٣٤]، وإن دعت الضـــرورة لبحث ذلك الماضي فإنـــه يجب أن يكون بطريقة منصفة عادلـــة لا تخضع لمـــا عند طائفة مـــن المواريث الفكرية، وإنما يحكم فيها القرآن والسُـــنَّة الثابتة عن النبي ﷺ باتفاق الجميع، فلا يجرم بريء ولا يبرأ مجرم اتباعاً للهوى وركوناً إلى العصبية.

تاسعها: عدم مجاوزة الحدود الشرعية في إصدار الأحكام على من زاغ

بحيث لا توزن القضايـــا بموازين العواطف الهائجـــة فتصدر الأحكام جزافـــا بتكفير بعض

الأمة، وسلخها عن الإسلام، وجعلها في عداد المرتدين عنه، أو في حكم المشركين، فإن هذا النهج الخاطئ هو الذي دفع بكثير من المتحمسين على غير هدى إلى استباحة دماء مخالفيهم من الأُمة، وعدم المبالاة باتخاذ جميع الوسائل لإبادتهم، ولو بالتفجير الذي يأتي عليهم وعلى غيرهم، فيبيد خضراءهم ويمزع أشلاءهم.

ونحن نرى كيف كان ورع السلف الصالح واحتياطهم في هذا الأمر، فما كانوا يستبيحون إخراج أحد من دائرة الأُمة، أو الحكم عليه بحكم أهل الشرك، إلا أن ينكر ما علم من الدين بالضرورة من غير تأويل، فإن كان في ضلاله متستراً بالتأويل كان تأويله واقيا له من ذلك، ولذلك عندما ظهرت ظاهرة تجسيم الله

تعالى وتشبيهه سبحانه بعباده، ووجد في الأمة من يحكم على أولئك المجسمة بأحكام أهل الشرك أنكر ذلك أهل البصائر المنصفون، فمع رفضهم لفكرة التجسيم واشمئزازهم منها وإنكارهم على أهلها أبوا أن يحكموا على المجسمة بأحكام المشركين، وقد وجه بهذا أبو عمرو الربيع بن حبيب وأبو غسان مخلد بن العمرد من البصرة إلى أهل المغرب رسالة ضافية فيها الإقناع بأن هؤلاء لم يصلوا إلى حد الإشراك، فلا يفصلون عن كيان الأُمة، وقد كان ذلك في القرن الثاني الهجري، ثم أعاد الكرة تلميذهما أبو سفيان محبوب بن الرحيل فأنشأ في هذا رسالتين وجه إحداهما إلى أهل عُمان والثانية إلى أهل حضرموت ينكر فيهما على من حكم عليهم بأحكام المشركين.

واستمر على ذلك أهل الإنصاف من علماء الأُمة، فقد سئل في القرن الثالث عشر المحقق الخليلي عن هذا، فصدر جوابه لسائله بقوله: «إياك ثم إياك أن تعجل بالحكم على أهل القبلة بالإشراك من قبل معرفة بأصوله، فإنه موضع الهلاك والإهلاك»[1].

هذا؛ ولم يكن هذا الخطاب مني إلا لحرصي على جمع كلمة الأُمة جميعاً على طريقة سواء وانتزاع كل ما وغرت به صدورها وغصت به من الأحقاد وكراهة بعضها لبعض، ولحرصي على إخراجها من هذا المستنقع الذي وقعت فيه إلى ما أتمناه لها من تبوء المكانة الرفيعة بين الأمم، وأخذها بزمام قافلة الإنسانية إلى مسالك الرشد ورحاب الخير والأمن والسلامة.

(١) كتاب تمهيد قواعد الإيمان، ج١، ص٢٢٤، ط وزارة التراث، سلطنة عُمان.

ولســـت بخطابي هذا متحيزاً إلى فئة دون أخـــرى، وإنما أقف من الجميـــع موقفاً واحداً حريصاً على انتشـــال الكل من هـــذا الضياع، وجمع الجميع على ما يحبه الله ويرضاه، بعدما تفرقت بهم السبل وغدوا أحزاباً متناحرة يسلط كل حزب على غيره مُدَاه على نحورهم تفري أوداجها وتحز غلاصمها، كأنما رضي الله تعالى في ســـفك دم بعضهـــا لبعض وقطـــع بعضها أوصال بعض.

ليت شعري؛ ألم تقرع مسامعهم قوارع النذر في كتاب الله؛ لتدرك أنها ليســـت على شـــيء، حتى تتدارك أمرها بالرجوع إلى الله، والاعتصام بدينه، والاســـتهداء بكتابه، والســـير على منهج رسوله ﷺ؟ ففي ذلك سلامة الدارين وسعادتهما وتبوؤ مقامات الرفعة في الدنيا والآخرة.

﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

[الأحقاف: ٣١ ـ ٣٢].

وأسأل الله تعالى أن تصادف كلماتي هذه من جميع الأحزاب المتفرقة آذانا صاغية وقلوبا واعية ونفوسا مخلصة، وأن يسارع الجميع إلى الاستجابة لداعي الله، والاستبصار ببصيرة العقول النيرة والتحرر من أسر العواطف الرعناء والأهواء التي لا تسوق أصحابها إلا إلى الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة والعياذ بالله.

هذه هي نصيحتي للكل.

لا يصدق الدين إلا من يناصحه

ولا يتم بغير النصح إيمان

فإن تمكن نصحي من بصائركم
بدا لكم من ضياء الحق فرقان[1]

﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨].

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى كل من تبع رشـــده إلى يوم الدين.

أخوكم في الإسلام
أحمد بن حمد الخليلي
١٥ /صفر الخير/ ١٤٣٦هـ

(١) ديوان أبي مسلم البهلاني، مصدر سابق، ٣١٥.